معرفة القدوس وصفات الله ومعناها في الحياة المسيحية

بقلم أ. و. توزر

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر أو إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو الكترونية بهدف بيعها أو المتاجرة بها أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن من الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل. يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي، كما يمكنك أن تنسخها لأجل توزيعها مجاناً لتعم الفائدة.

مقدمة المؤلف

الديانة الحقّة تقابل الأرض بالسماء وتقرن الأبدية بالزمن، وخادم المسيح، مع أنه يتحدّث من قبل الله، يجب عليه كما يقول أتباع طائفة "الكويكرز" Quakers "أن يأخذ بعين الاعتبار" أحوال سامعيه، وإلا لكان كمن يتحدث لغة لا يفهما إلا هو نفسه، فيجب أن تكون رسالته موافقة لكل عصر كما هي موافقة للزمن الذي تقال فيه، وعليه أن يحدّث طبقاً لحاجات جيله.

ورسالة هذا الكتاب لا تنبع من حاجة يومنا هذا ولكنها تناسب يومنا هذا، وقد دعت إليها حالة الكنيسة التي سادت فيها منذ سنين وهي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وأعني بذلك ضياع فكرة الجلال من الفكر الديني السائد. فلقد تخلّت الكنيسة عن فكرها السّامي عن الله واستعاضت عن ذلك الفكر بآخر وضيع لا يليق بجمهور العابدين. وهي لم تعمل ذلك متعمدة بل انزلقت إليه رويداً رويداً في غفلة منها، وهذه الغفلة تجعل موقفها مدعاة إلى حسرة وأسىً أكثر.

والفكرة الوضيعة عن الله التي تكاد أن تسود جميع المسيحيين هي السبب في مئات من الشرور أقل خطراً في مواضع كثيرة بيننا. ولقد نشأت عن هذه الغلطة الأساسية الوحيدة فلسفة جديدة عن الحياة المسيحية.

وتنتج عن فقدان الشعور بالجلال والوقار ضياع الرهبة الدينية والإحساس بحضور الله. لقد فقدنا روح العبادة والقدرة على الاعتكاف الداخلي لكي نتقابل مع الله في صمت تعبّدي وخشوع، ولم تعد المسيحية العصرية تنتج الشخص المسيحي الذي يفهم الحياة بالروح ويعيشها، ولم يعد القول "كفوا واعلموا أني أنا الله"، يعني الكثير للعابد المتّكل على ذاته، والذي يعيش في دوامة الحياة في منتصف القرن العشرين.

ولقد صادف أن جاء فقدان فكرة الجلال هذا في وقت تتقدم فيه القوى الدينية تقدماً كبيراً جداً، والكنائس فيه في نجاح لم تحققه طيلة مئات من السنين خلت. ولكن الأمر المروّع هو أنّ هذا التقدم ليس إلا تقدماً خارجياً بينما خسارتنا كلها خسارة داخلية. ولما كانت نوعية تديّننا هي التي تتأثر بالظروف الداخلية لذلك فقد تكون مكاسبنا الظاهرية ما هي إلا خسائر منتشرة على نطاق واسع.

والسبيل الأوحد لتعويض خسائرنا الداخلية هو الرجوع إلى السبب في هذه الخسائر وتصحيح أوضاعنا حسب مقتضيات الحق. إن السبب في متاعبنا هو تضائل معرفتنا للقدوس، فإذا ما عرفنا من جديد جلال الله تعالى ساعدنا ذلك كثيراً على إصلاح حالنا. ومن المستحيل أن نبقى على سلامة تصرفاتنا الأدبية وميولنا الداخلية بينما فكرتنا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

عن الله فكرة خاطئة أو غير مواتية، فإذا ما أردنا أن نستعيد القوة الروحية في حياتنا فيجب علينا أن يكون تفكيرنا عن الله أقرب ما يكون إلى كنه الله.

وإسهاماً مني في إيجاد معرفة أصلح عن العظمة في الأعالي أقدم بوضع هذه الدراسة عن صفات الله، دراسة إجلال واحترام. ولو أن المسيحيين اليوم يقرءون كتباً كتلك التي كتبها أوغسطين أو أنسلم Augustine or Anselm لما كانت هناك حاجة إلى كتاب كهذا الذي أقدمه الآن. ولكن أولئك الأفاضل المستنيرين معروفون بالاسم فقط للمسيحيين اليوم. إن دور النشر تطبع كتبهم وهذه بدورها تعرف طريقها إلى رفوف مكتباتنا، وهناك تكمن العلة كل العلة، فالكتب تبقى على الرفوف، والروح الدينية السائدة تجعل مطالعة تلك الكتب تكاد أن تكون مستحيلة حتى للمسيحي المثقف.

ويبدو أن كثيرين من المسيحيين لا قبل لهم باستيعاب مئات الصفحات التي تزخر بالأمور الروحية العميقة التي تستدعي انتباهاً وتركيزاً. فهذه الكتب تذكر الكثيرين منهم بتلك الكتب الأدبية والعلمية التي كان عليهم أن يطالعوها عندما كانوا في المدرسة وهكذا يعزفون عنها يائسين.

ولذلك نعتقد أن كتابنا هذا سوف لا يضيع سدى، فليس هو كتاباً فلسفياً لجماعة خاصة ولا هو بالكتاب الفني، ولما كانت لغته لغة العبادة دون ما ميل إلى أسلوب عالٍ طليّ فلعل البعض يقبلون على قراءته. ومع اعتقادي بأنه ليس بالكتاب ما ينافي التعليم المسيحي الصحيح إلا أنني لا أكتب للاهوتيين المحترفين بل للأشخاص البسطاء الذين تحثهم قلوبهم للبحث عن الله.

وأملي أن يسهم هذا الكتاب الصغير في زيادة التدين القلبي فينا، فإذا ما تشجع البعض نتيجة لقراءته فراحوا يمارسون التأمل في كنه الله بإجلال واحترام فإن ذلك مكافأة لي أعظم من المجهود الذي بذلته في إنتاج هذا الكتاب.

ا.و. توزر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الأول: لماذا يجب أن يكون تفكيرنا عن الله سليماً

أيها الرب الإله القدير، لا إله الفلاسفة والحكماء بل إله الرسل والأنبياء، وفوق كل شيء، يا أبا ربنا يسوع المسيح، أتسمح لي أن أقوم غير ملومٍ بالإفصاح عنك؟

إن الذين لا يعرفونك قد يدعونك بما لا يتفق مع كنهك، ولذلك فهم لا يعبدونك بل هم يعبدون مخلوقاً أبدعته تصوراتهم، فأنر اللهم بصائرنا لكي نعرفك كما أنت فنحبك محبة كاملة ونحمدك كما يليق.

باسم ربنا يسوع المسيح. آمين.

إن ما يتبادر لذهننا عندما نفتكر في الله هو أهم شيء عن أنفسنا.

ولعل تاريخ الجنس البشري يظهر بأنه ما من شعب ارتفع فوق مستوى ديانته، كما أن التاريخ الروحي للإنسان يظهر بكل جلاء ووضوح أنه ما من ديانة ارتفعت فوق مستوى فكرتها عن الله. فالعبادة تكون طاهرة أو منحطة بقدر ما تكون أفكار العابد عن الله.

ولذلك فإن أخطر سؤال يواجه الكنيسة هو دائماً الله نفسه وأشنع حقيقة عن أي إنسان ليست ما يقوله أو ما يعمله في وقت من الأوقات، بل هي في ما يكنّه في قرارة نفسه عن كنه الله، ونحن ميّالون وفقاً لناموس نفسيّ خفيّ إلى السير نحو الصورة الفكرية التي نرسمها لله. وهذا لا يصدق على الفرد المسيحي فحسب بل على الجماعة المسيحية التي تتكون منها الكنيسة. وهكذا فإن أفصح شيء عن الكنيسة هو فكرتها عن الله، كما أن أعظم رسالة لها هي ما تقوله أو ما لا تقوله عنه، فكثيراً ما يكون صمتها أبلغ من كلامها، فهي لا يمكن أن تتحاشى الإعلان عن نفسها فيما تشهد به عن الله.

ولو أننا استطعنا أن نستخلص من أي إنسان جواباً شافياً عن السؤال: "ماذا يتبادر لذهنك عندما تفكر في الله؟" لأمكننا أن نجزم بالمستقبل الروحي الذي ينتظر ذلك الإنسان، ولو أننا استطعنا أن نستطلع على وجه التدقيق أفكار قادتنا الدينيين المرموقين اليوم عن الله لأمكننا أن نتنبأ بشيء من الدقة بما ستكون عليه الكنيسة في الغد.

وبما لاشك فيه أن أقوى فكر يمكن أن يستوعبه العقل البشري هو فكر الله، وأن أقوى كلمة في أية لغة هي كلمة الله. والفكر والنطق هما عطية الله للمخلوقات التي عملها على صورته تعالى، وهما متّصلان به اتصالاً وثيقاً ويستحيل وجودهما بدونه. ومما يجدر ملاحظته جداً أن أول كلمة كانت هي الكلمة "وكانت الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله".

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ونحن نتكلم لأن الله تكلم. فالكلمة والفكرة فيه تعالى ولا يمكن فصلهما الواحدة عن الأخرى.

ومن الأهمية بمكان عظيم لنا أن تكون فكرتنا عن الله متفقة قدر الإمكان مع طبيعة كنه الله. وإن ما نقرره من حقائق في قانون إيماننا ليس مهماً كثيراً إذا ما قيس بأفكارنا الفعلية عنه.

إن الفكرة الحقة عن الله قد تكون مدفونة تحت أنقاض أفكار دينية تقليدية، وقد تحتاج إلى بحث واعٍ قوي لاكتشافها وتعريتها للفحص. ونحن نحتاج إلى سَبر مؤلم لأغوار نفوسنا إذا ما أردنا أن نكتشف إيماننا الفعلي بالله.

إن الفكرة الحقة عن الله أساسية جوهرية ليست فقط لمعرفة لاهوتية نظامية بل للحياة المسيحية العملية. فهي لازمة للعبادة لزوم الأساس للهيكل، فإذا ما كانت قاصرة أو غير متّزنة فلا بد أن يتداعى البناء كله يوماً ما. وأنا أؤمن أن ما من خطأ في التعليم أو قصور في تطبيق المبادئ الأخلاقية المسيحية إلا ويرجع في الأصل إلى أفكار قاصرة أو منحطة عن الله.

وفي رأيي إن الفكر المسيحي السائد في منتصف القرن العشرين عن الله لهو فكر متدهور لدرجة لا تليق لعظمة الله العلي وهو يشكل نكبة أخلاقية للمؤمنين الذين يعترفون بالله.

ولو أن مشاكل السماء والأرض تجمعت سوياً وواجهتنا في وقت واحد لكانت شيئاً يسيراً إذا ما قيست بمشكلة الله الهائلة: أي أنه موجود، وعلى أية صورة هو، وما هو واجبنا كخلائق مسؤولة بإزائه.

والإنسان الذي يتوصل إلى الإيمان الحق بالله يعتق من عشرات الآلاف من المشاكل الزمنية لأنه يعرف لأول وهلة أن هذه تتعلق بمسائل وقتية لا يمكن أن تختص به لوقت طويل. وحتى لو رفعت عنه كل الأحمال الزمنية، وما أكثرها، فإن الحمل القوي الوحيد، حمل الأبدية، لا يزال يجثم على صدره بثقل يفوق جداً كل أهوال العالم وإن تجمعت هذه الواحد فوق الآخر، هذا الحمل الهائل هو دينه لله وهو يعني واجبه أن يحب الله كل أيام حياته من كل قوّته ومن كل فكره ومن كل نفسه وأن يطيعه طاعة كاملة وأن يعبده عبادة مقبولة. وعندما يقول الضمير المتعب للإنسان بأنه لم يعمل ولا واحدة من هذه كلها، بل لقد أجرم منذ طفولته بثورة ضد إله السماء فان وطأة لوم الضمير في داخله تصبح أثقل مما يحتمل.

إن الإنجيل يستطيع أن يرفع هذا الحمل المدمّر عن الفكر، وأن يعطي جمالاً عوضاً عن الرماد وثياب الحمد بدلاً عن الروح المنسحقة ولكن الإنجيل لا يعني شيئاً للإنسان حتى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يشعر الإنسان أولاً بثقل الحمل، وعندما يبصر الإنسان الله العلي مرفوعاً عندئذٍ يختفي كل وجع وكل حمل . فالأفكار الوضيعة عن الله تدمر الإنجيل لكل شخص يعتنق هذه الأفكار.

وليس بين الخطايا التي يتعرض لها قلب الإنسان خطية أبغض إلى الله من عبادة الأوثان، فعبادة الأوثان في أساسها طعن في صفات الله. فالقلب الذي يعبد الأوثان يفترض أن الله ليس هو الله- وهذا في حد ذاته خطية خطيرة- ويستبدل بالإله الحق إلهاً مصنوعاً حسب تصوره هو. وهذا الإله يتفق دائماً مع صورة الشخص الذي ابتدعها وهو طاهر أو منحط، قاسٍ أو لطيف، حسب الحالة الخلقية للفكر الذي أخذ عنه.

والإله الذي ينشأ في ظلال قلب ساقط لا يمكن أن يكون بالطبيعة صورة حقّة للإله الحق. ولذلك يقول الله في المزمور للإنسان الشرير "ظننتَ أني مثلك". ولا شك أن ذلك إساءة خطيرة للإله العلي الذي أمامه تصرخ الكروبيم والساروفيم باستمرار قائلين: "قدوس قدوس قدوس رب الجنود."

فلنحترس لئلا نظن في كبريائنا مخطئين أن عبادة الأوثان ما هي إلا الركوع أمام أشياء ملموسة لعبادتها، وأن الشعوب المتحضرة لذلك بعيدة عنها، فإن عبادة الأوثان في جوهرها احتضان أفكار عن الله لا تليق به سبحانه وتعالى- وهذه الأفكار تبدأ في العقل وقد توجد حيث لا يكون هناك عمل ظاهر للعبادة، ولذلك يقول بولس: "لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله بل حمقوا في أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي".

وبعد ذلك دخلت عبادة الأوثان في شكل البشر والطيور والوحوش والدبابات. ولكن هذه السلسلة من الأعمال المنحطة بدأت في العقل والفكر. وليست الأفكار الخاطئة عن الله هي المنبع الذي تجري منه مياه عبادة الأوثان النجسة فقط، بل هي عبادة الأوثان بعينها، فعابد الأوثان يتخيل تصورات عن الله ويتصرف كما لو كانت هذه حقيقة.

إن الأفكار المنحرفة عن الله سرعان ما تفسد الديانة التي تظهر فيها، وتاريخ العبرانيين الطويل يظهر ذلك بجلاءٍ كافٍ كما يؤيده تاريخ الكنيسة. فتكوين فكرة عالية عن اللاهوت لازمة جداً للكنيسة، فإذا ما تضاءلت هذه الفكرة بأية درجة انحطت معها الكنيسة وعبادتها ومعاييرها الأخلاقية. وأول درجة في سقوط كنيسة ما إنما هي في تفريطها في أفكارها العالية عن الله.

فقبل أن يخبو نور أية كنيسة في أي مكان تفسد تعاليمها اللاهوتية الأساسية. أي إنها بكل بساطة تجيب إجابة خاطئة عن السؤال: "كيف الله"، ومن هنا تنحدر. ومع إنها تظل متشبثة بقانون إيمان سليم اسماً، إلا أن قانون إيمانها المسلكي يغدو فاشلاً فعلاً. ويصبح إيمان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أعضائها بالله مغايراً لما هو (أي الله) عليه فعلاً. وهذه ضلالة من أشر أنواع الضلالات وأخبثها.

وإن واجب الكنيسة المسيحية الأول والأهم اليوم هو تنقية أفكار الناس عن الله ورفعها عالية حتى تصير مرة أخرى لائقة به-وبها، بل يجب أن يحتل ذلك المقام الأول في صلواتها وجهادها. ونحن نؤدي أكبر خدمة للجيل الآتي من المسيحيين أذا نحن سلمناهم تلك الفكرة النبيلة عن الله غير معتمة وغير منقوصة، تلك الفكرة التي تسلمناها نحن من الآباء الأولين في العصور السالفة. وهذا أكثر أهمية لهم من كل ما يخترعه العلم والفن.

يا إله بيت إيل يا من بيدك

لا تزال ترعى شعبك

يا من في هذه الغربة الموحشة

قدت كل آبائنا

نقدم الآن نذورنا وصلواتنا

أمام عرش نعمتك

يا إله آبائنا كن إله

خلَفهم من بعدهم.

فيليب دودردجPhilip Doddridge

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثاني: الإله الذي لا يحدّه إدراك

يا رب ما أكبر ورطتنا! إن أنسب شيء لنا في حضرتك هو أن نلوذ بالصمت، ولكن محبتك تلهب قلوبنا وتدفعنا للكلام.

فلو أننا صمتنا لصرخت الحجارة، ولكننا إذا ما نطقنا فماذا نقول؟ علمنا يا رب إننا لا نعلم شيئاً، فأمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله. فليسندنا الإيمان حيث يفشل العقل فنفتكر عندئذ لأننا نؤمن، وليس لكي نؤمن.

باسم يسوع استجبنا. آمين.

سؤال واحد يختلج في صدر الطفل، والفيلسوف، والمتدين: "ما هو شبه الله"؟.

إن الغرض من هذا الكتاب محاولة الإجابة عن هذا السؤال. ولكنني أسارع فأقول في البداية أنه لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بالقول بأن الله لا يشبه شيئاً، أي أنه لا يشبه تماماً أي شيء أو أي إنسان.

إن طريقتنا في التعليم هي استعمالنا ما نعلمه كجسور للعبور فوقه لنصل إلى ما لا نعلمه، وليس ممكناً للعقل أن ينتقل بسرعة مفاجئة من المعروف إلى غير المعروف. وحتى أكثر العقول قوة وجرأة غير قادر على أن يخلق شيئاً من لا شيء عن طريق الخيال الفوري حتى الكائنات العجيبة التي تسكن عالم الأساطير والخرافات ليست مجرد نسجٍ من الخيال، فقد نسجها الخيال عن طريق استعمال المخلوقات العادية التي تسكن الأرض والبحر والهواء، وزيادة أشكالها العادية عن حدودها، أو الخلط بين اثنين أو أكثر منها حتى يستحدث شيئاً جديداً. ومهما كانت هذه جميلة أو غريبة فمن الممكن الرجوع إلى الأصل الذي نشأت عنه. فهي مشابهة لأشياء نعرفها.

ومحاولة الرجال الذين استخدمهم الوحي التعبير عما لا يوصف ألقى عبئاً ثقيلاً على الفكر واللغة في الكتاب المقدس. فالأشياء التي لا توصف هي غالباً أمور تختص بعالم ما فوق الطبيعة، ولكن العقول التي كتبت هذه لأجلها هي جزء من الطبيعة ولذلك فقد اضطر الكتاب إلى استخدام الكثير من كلمات "الشبه" لكي يوضحوا ما أرادوه.

وعندما يريد الروح القدس أن يعرّفنا على شيء خارج نطاق إدراكنا فإنه يخبرنا أن هذا الشيء يشبه شيئاً نعرفه فعلاً، ولكنه حريص دائماً في وصفه حتى لا نقع عبيداً للحرفية. فمثلاً عندما رأى حزقيال النبي السموات مفتوحة ورأى رؤى الله وجد نفسه ينظر إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أشياء لا كلام له يستطيع أن يعبر عنها. فما كان يبصره كان يختلف تماماً عما قد عرفه من قبل ولذلك فقد لجأ إلى لغة الشبه: "أما شبه الحيوانات فمنظرها كجمر نار متقدة."

وكلما اقترب من العرش المتّقد كلما أصبحت كلماته أقل تأكيداً وجزماً "وفوق المقيب الذي على رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق ورأيت مثل منظر النحاس اللامع كمنظر نار داخله.... هذا منظر شبه مجد الرب".

ومع غرابة هذه اللغة إلا أنها لا تعطي انطباعاً بأنها تعبّر عما ليس حقيقي تماماً ولكنه غريب تماماً عن كل ما يعرفه سكان البسيطة. ولذلك وجد النبي لزاماً عليه أن يستعمل كلمات مثل "شبه" و "منظر" وحرف التشبيه"كـ" و"منظر شبه"، وحتى العرش قال عنه "شبه العرش"، والجالس عليه، مع أنه كإنسان، إلا أنه يختلف عن الإنسان لدرجة أنه يوصف بأنه "شبه كمنظر إنسان."

وعندما يقرر الكتاب المقدس أن الإنسان جبل على صورة الله فليس بوسعنا أن نضيف إلى هذه العبارة فكرة من رؤوسنا لتجعلها تعني "صورة حقة لله". فلو أننا فعلنا ذلك لجعلنا الإنسان صورة طبق الأصل لله، وهذا يضيع وحدة الله، وينتهي بضياع الله بالمرة. وهذا معناه نقض الجدار الذي لا نهاية لارتفاعه، والذي يفصل بين ما هو الإله وما ليس هو الإله. فإذا ما فكرنا بأن الخلائق تستوي مع الخالق في الجوهر فإننا بذلك نسلب الله من معظم صفاته وننزل به إلى مستوى المخلوق. فمثلاً نحن بذلك نسلبه من صفة اللانهائية، فلا يمكن أن يوجد عنصران لانهائيان في الكون، وكذلك نسلبه من سيادته، فلا يمكن أن يوجد كائنان حران كل الحرية في الكون، إذ لو وجدت إرادتان مطلقتا الحرية لاصطدمتا إن عاجلاً أو آجلاً. هاتان الصفتان على الأقل تستلزمان أن يكون هناك واحد فقط تتبعان له.

وعندما نحاول أن نتخيل شبه الله فيجب علينا أن نستعمل ما ليس هو الإله كوسيلة تستخدمها عقولنا، ولذلك فكل ما نتصوره عن الله، فليس الإله مثله، لأن الصورة التي تخيلناها قد تكونت مما خلقه الله، وما خلقه الله ليس هو الله. وإذا ما صممنا على محاولة تصوره انتهينا إلى صنم صنعته أفكارنا لا أيدينا، وصنم صنعته الأفكار هو مكرهة للرب تماماً كصنم صنعته الأيدي.

قال نيقولا أوف كوسا" Nicholas of Cusa : يا رب إن العقل يعلم أنه يجهلك، لأنه يعرف أنك لا تُدرك إلا إذا أدرك ما لا يمكن إدراكه، ورؤى ما لا تمكن رؤيته وتوصل إلى ما لا يمكن الوصول إليه." ثم استطرد يقول مخاطباً الله: "إذا ما عرض أحد فكرة لتفهمك فأنا أعرف أن هذه الفكرة ليست فكرة عنك فكل فكرة تنتهي في جدار الفردوس... وهكذا إذا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ما قال أحد أنه تفهمك وأراد إبراز وسيلة بها نتفهمك، فإن ذلك الإنسان لا يزال بعيداً عنك لأن المطلق فوق كل الأفكار التي يمكن الإنسان أن يصوغها".

وإذا ما تركنا وشأننا فإننا نميل فوراً إلى إنزال الله إلى الحد الذي تستطيع الألفاظ أن تعبر عنه، فنريد أن نضعه حيث يمكننا أن نستعمله، أو على الأقل حيث نعلم مكانه لنستعمله عند الحاجة، فنحن نريد إلهاً نستطيع أن نسيّره بطريقة ما، ونحن نفتقر إلى الشعور بالطمأنينة التي تأتي عن طريق معرفة كنه الله، وكنهه هو بلا شك مزيج من كل الصور الدينية التي شاهدناها، وكل الناس الأخيار الذين عرفناهم أو سمعنا عنهم، وكل الأفكار السامية التي استضفناها.

فإذا ما بدا هذا كله غريباً على الأذن العصرية فما ذلك إلا لأننا أخذنا الله قضية مسلمة زهاء نصف قرن من الزمان، ولم يستعلن مجد الرب لهذا الجيل من البشر، فإله المسيحية المعاصرة لا يفوق إلا قليلاً آلهة الإغريق والرومان، هذا إذا لم يكن فعلاً أقل منها لأنه ضعيف لا حول له ولا طول بينما تلك الآلهة كانت على الأقل ذات قوة.

فإذا ما كان الله غير متفق مع ما نظنه عنه فكيف إذن نتفكر فيه، وإذا ما كان حقاً لا يمكن إدراكه، كما يقر بذلك قانون الإيمان، ولا يمكن أن يدنى منه، كما يقول بولس، فكيف نشبع نحن المسيحيين رغبتنا في معرفته؟ إن القول المملوء رجاء "تعرّف به واسلم" لا يزال سارياً على مر العصور والأزمان، ولكن كيف نتعرف بمن يفوق كل مجهود العقل والقلب؟ وكيف نطالب بأن نعرف ما لا يعرف؟

لقد سأل صوفر النعماني قائلاً: "أإلى عمق الله تتصل أم إلى نهاية القدير تنتهي. هو أعلى من السموات فماذا عساك أن تفعل. أعمق من الهاوية فماذا تدري." وقال الرب المبارك: "وليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له." وبشارة يوحنا تعلن عجز العقل البشري أمام العظمة، أي الله، كما يعلمنا بولس في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس أن الله لا يمكن معرفته إلا إذا أعلنه الروح القدس للقلب الباحث عنه.

إن الرغبة في معرفة من يجل فوق كل معرفة، وفي إدراك من لا يمكن إدراكه، وفي لمس من لا يدنى منه وتذوقه، هذه الرغبة ناشئة من صورة الله في طبيعة الإنسان –غمر ينادي غمراً- ومع أن نفس الإنسان قد تنجست وأحاطت بها من كل جانب تلك الكارثة العظمى التي يسميها اللاهوتيين بالسقوط، إلا أن هذه النفس تحس بأصلها الذي جاءت منه وتتوق لأن ترجع إلى أصلها – فكيف السبيل إلى ذلك؟

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إن جواب الكتاب المقدس عن هذا السؤال هو بكل بساطة "بيسوع المسيح ربنا." في المسيح وبالمسيح يعلن الله نفسه الإعلان الكامل، ولو أنه لا يعلن نفسه للعقل بل للإيمان والمحبة. فالإيمان عضو من أعضاء المعرفة والمحبة عضو من أعضاء الاختبار. فبالتجسد جاءنا الله، وبالفداء صالحنا لنفسه، وبالإيمان والمحبة ندخل ونتمسك به.

قال ريتشارد رولRichard Rolle ، ذلك المرنم الذي أسرته محبة المسيح: "حقاً أن الله عظيم عظمة لا نهاية لها.... أكثر مما نستطيع نحن أن نفكر..... عظمة لا يمكن أن تدركها الخلائق، ولا يمكن لنا أن نعيها. ومع ذلك فعندما يبدأ القلب يلتهب شوقاً لمعرفة الله هنا في هذه الحياة فعندئذٍ يُعطى القلب قدرة على استيعاب النور غير المخلوق، فتدفعه مواهب الروح القدس وتساعده على تذوق أفراح السماء، فيعلو على الأمور المنظورة ويرقى إلى حلاوة الحياة الأبدية..... في هذا حقاً هي المحبة الكاملة، عندما ترقى كل حنايا العقل ونبضات القلب الخفية إلى محبة الله".

إن تعرّف النفس على الله له اختبار شخصي رقيق بينما الابتعاد الكثير عن نظرة العقل الفضولية ينشئ تناقضاً أحسن ما يوصف به هو قول الشاعر فريدريك و.فايبر Frederick W.Faper:

ظلام للعقل

ولكنه نور الشمس للقلب

ويشرح مؤلف الكتيب الذي عنوانه "سحابة عدم المعرفة " The Cloud of Unknowingهذا الموضوع في كتابه فيقول أن الباحث عن الله يجد إذ يقترب إليه أنه يسكن في خفاء تحجبه عنه سحابة من عدم المعرفة لدى الإنسان، ولكن الباحث مع ذلك يجب ألا ييأس بل يجب أن يثابر بعزم لا يلين ليتعرف على الله. إن هذه السحابة تقف بين الباحث والله حتى لا يراه الباحث بجلاء ووضوح نتيجة النور العقلي ولا يحس به في العواطف والشعور. ولكن برحمة الله يندفع الإيمان إلى حضرة الله إذا ما آمن الباحث بالكلمة وثابر على عزمه.

ولقد ذكر الشيء عينه القديس الإسباني مايكل دي مولينوس Michael de Molinos فقال في كتابه "المرشد الروحي" أن الله يمسك بيد النفس ويقودها إلى الإيمان النقي "ثم يجعل الذهن يتخلى عن كل الاعتبارات والتحاجج ويقوده إلى الأمام...وهكذا يجعله يسمو بمعرفة الإيمان البسيطة الخفية إلى عريسه محمولاً على أجنحة المحبة".

ونظراً لهذه التعاليم وأمثالها حكمت محاكم التفتيش على مولينوس بالهرطقة وحكمت عليه بالسجن مدى الحياة، ولم يلبث أن مات في السجن، ولكن الحق الذي علم به لن يموت. وقد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

قال في معرض الحديث عن النفس المسيحية المؤمنة "دعها تعتقد أن العالم كله وكذلك أرقى أفكار العقول المفكرة لا يمكن أن تمدها بأي علم، وأن صلاح حبيبها وجماله يفوقان إلى مالا نهاية كل معرفة تلك العقول وكل العالم، لأنها توقن أن كل الخلائق عاجزة عن إعلامها وقيادتها إلى معرفة الله ... ولذلك عليها أن تتقدم في محبتها ناسية وراءها كل ذهنها. دعها تحب الله كما هو في ذاته، وليس كما يرسمه لها خيالها ويصوره".

"ما هو شبه الله؟" إننا إذا قصدنا من هذا السؤال: "كيف الله في ذاته؟" فليس من جواب عنه. ولكننا إذا قصدنا "ماذا أعلن الله عن ذاته مما يستطيع العقل بوقار أن يدركه؟" فهناك كما اعتقد جواب مقنع شافٍ. فبينما اسم الله سر مخفىً وطبيعته الجوهرية غير مدركة، قد تنازل في محبته وأعلن بعض الأشياء الحقة عن ذاته تعالى. هذه ما نسميها صفاته:

أيها الآب السني، أيها الملك السماوي

إننا نجترئ على التسبيح لك

والاعتراف بصفاتك بفرح

وهي المجيدة التي لا تعد ولا تحصى.

تشارلز ويسليCharles Wesley

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثالث: صفة من صفات الله شيء حق عن الله

يا ذا الجلال الذي لا يوصف إن نفسي تتوق إلى أن تراك، إنني أصرخ إليك من التراب.

ومع ذلك فعندما أبحث عن اسمك أجده سراً. أنت مختفٍ في النور الذي لا يدنو إنسان منه، فلا يستطيع فكر أو كلام أن يفصح عن كنهك لأن مجدك لا يوصف.

ولكن الأنبياء والمرنمين، والرسل والقديسين قد شجعوني على الإيمان بأنني أستطيع أن أعرفك بعض المعرفة. لذلك أصلي أن تعينني لأبحث عن ما شاءت مسرتك أن تعلنه من ذاتك باجتهاد كبحثي عن كنزٍ ثمين من الياقوت أو الذهب المصفى، فسوف أحيا معك بعد أن تمحى نجوم الشفق وتزول السماوات، وتبقى أنت يا رب... آمين.

إن دراسة صفات الله ليست دراسة كليلة ثقيلة بل هي للمسيحي المستنير تمرين روحي حلو ملذ. وليس ألذّ منها للنفس العطشى لله:

مجرد الجلوس والتفكير في الله

يا له من سرور

فافتكار الفكر وذكر الاسم

متعة لا تملك الأرض أحلى منها.

فريدريك و. فابير

لعله من الضروري أن نبدأ بتعريف الكلمة: صفة المستعملة في هذا الكتاب. فنحن لا نستعملها بمعناها الفلسفي. كما لا نقصر معناها على المعنى اللاهوتي من أضيق حدوده. بل نقصد بها كل ما تمكن نسبته لله على الوجه الصحيح. فكلمة صفة من صفات الله في هذا الكتاب تعني كل ما أعلنه الله بأية طريقة باعتباره الحق عن ذاته.

وهذا يقودنا إلى التساؤل كم هي صفات الله. لقد اختلف المفكرون الدينيون في هذا الأمر، فقال بعضهم هي سبع، لكن فابير تغنى "بالإله ذات الألف صفة"، ونظم تشارلز ويسلي في ترنيمته:

نعترف بفرح بصفاتك

المجيدة والتي لا تحصى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

صحيح أن أولئك الرجال كانوا يعبدونه ولم يكونوا يعدون الصفات، ولكن من الحكمة أن نقتفي أثر القلب الذي سبته محبة الله عن أن نتبع الحجج الحذرة التي يصوغها العلماء اللاهوتيون وإذا ما كانت الصفة أمر حقيقي عن الله فيجدر بنا ألا نحاول عدها. زد على ذلك أن عدد الصفات ليس من الأهمية بمكان في مجال تأملاتنا هذا عن كنه الله، فسوف نذكر العدد القليل منها.

وإذا ما كانت الصفة أمراً حقاً عن الله فهي أيضاً أمراً نستطيع أن نفهم أنه حق عنه. فبما أن الله غير محدود فيجب أن تكون له صفات لا نعرف نحن عنها شيئاً، فالصفة التي نستطيع نحن أن نعرفها، إنما تكون فكرة مدركة، جواباً عقلياً عن إعلان الله عن ذاته. إنها جواب عن سؤال، الجواب الذي يعطيه الله عن سؤالنا عنه.

ما هو شبه الله؟ وما هي صفاته؟ وماذا ننتظر منه في معاملاته معنا ومع كل خلائقه؟ إن أسئلة كهذه ليست مجرد أسئلة للبحث والدرس، فهي تمس أعماق روح الإنسان، والإجابات عنها تؤثر في الحياة والمصير والأخلاق. وعندما يسألها الإنسان باحترام ويحاول بتواضع أن يعرف الإجابة عنها، يجد أنها أسئلة تسر قلب أبينا الذي في السموات، فهو كما يقول جوليان أوف نوريتش :Julian of Norwich يريد أن نشغل أنفسنا بالمعرفة والمحبة حتى نكمل في السموات..... فرؤية الخالق وحبه يجعلان النفس تبدو كأنها يسيرة في عيني صاحبها وتملآن الإنسان رهبة خشوعية ووداعة حقة ومحبة فائقة لإخوته المؤمنين".

لقد أعد الله إجابات عن أسئلتنا، لا كل الإجابات، بكل تأكيد، بل إجابات كافٍ عددها ليشبع عقولنا وينعش قلوبنا. ولقد أعد هذه الإجابات في الطبيعة، وفي الكتاب المقدس، وفي شخص ابنه.

والمسيحيون المحدثين غير متحمسين كثيراً للفكرة القائلة بأن الله يعلن ذاته في الخليقة، ولكن هذه الفكرة مدونة بالوحي في الكتاب المقدس وخاصة فيما كتبه داود وأشعياء في العهد القديم وفي رسالة بولس إلى أهل رومية في العهد الجديد، وهذا الإعلان أكثر وضوحاً في الكتاب المقدس.

السموات تحدث بمجدك يا رب

وحكمتك تشع من كل نجمة

ولكن عندما تبصر أعيننا كلمتك

نقرأ اسمك في سطور أكثر وضوحاً.

ايزاك واتسIsaac Watts

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ومن المستلزمات المقدسة للرسالة المسيحية أن الإعلان الكامل جاءنا في التجسد عندما صار الكلمة السرمدي جسداً وحل بيننا.

ومع أن الله في إعلانه المثلث هذا أعطانا الإجابة عن أسئلتنا عنه، فإن هذه الإجابة ليست بأي حال سهلة المنال بل يجب أن نطلبها بالصلاة، وبالتأمل الطويل في الكلمة المكتوبة، وبالعمل الجدي المنظم جيداً. ومهما أضاء النور بلمعانه فلن يراه إلا المهيئون روحياً لقبوله: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله".

وإذا ما أرنا أن نفكر تفكيراً دقيقاً في صفات الله فيجب علينا أن نتحاشى بعض الكلمات التي لا بد أنها سوف تزدحم في أفكارنا، كلمات مثل خلّة، وميّزة، وسجيّة، وهي كلمات مناسبة وضرورية عندما نتأمل في المخلوقات ولكنها غير مناسبة إطلاقاً في مجال تفكيرنا في الله. فيجب أن نقلع عن عادة تفكيرنا في الخالق كما نفكر في خلائقه. ولعله مستحيل أن يكون الفكر غير مصحوب بكلمات، ولكننا إذا ما سمحنا لأنفسنا أن تصحب أفكارنا كلمات خاطئة فسرعان ما تكون أفكارنا نفسها خاطئة، لأن الكلمات التي عندنا والتي نعبر بها عن أفكارنا معتادة على أن تتخطى حدودها الصحيحة وأن تحدد محتويات الفكر.

ويقول توماس تراهيرن" :Thomas Traherne كما أنه ليس هناك ما هو أسهل من الفكر فكذلك ليس هناك ما هو أصعب من الفكر الصواب." فإذا ما كان لنا أن نفكر صواباً فيجب أن يكون ذلك الفكر الصواب عن الله.

إن كل إنسان عبارة عن مجموع أجزائه، وخلقه هو مجموع الخلال التي تكوّن ذلك الخلق- وهذه الخلال تختلف من شخص لآخر، كما تختلف هي بعضها عن بعض من وقت لآخر في الشخص الواحد فالخلق البشري ليس ثابتاً لأن الخلال أو السجايا التي تكوّنه ليست ثابتة فهي تجيء وتروح، وتخبو وتلمع ببريق وهاج طوال حياتنا. ولذلك فالرجل الذي يكون رحيماً ومنصفاً في سن الثلاثين قد يصير قاسياً وفظاً في سن الخمسين. وهذا التغيير ليس بمستغرب لأن الإنسان مخلوق، فهو تركيب بكل معنى الكلمة، لأنه مجموع الخلال التي يتكون منها خلقه.

وطبيعي وصحيح ما نفكر به من أن الإنسان عمل إبداعه الفهم الإلهي فهو مخلوق ومبدع، أما كيف خلق فسر من أسرار الله لم يعلن، وكيف صار موجوداً مما ليس هو موجوداً وكيف صار شيئاً مما هو لا شيء فذلك ليس معلوماً وقد يبقى غير معلوم إلا للذي عمله. أما كيف عمله الله فهو سر أيسر، ومع أننا لا نعلم إلا اليسير من كل الحق، إلا أننا نعلن أن للإنسان جسداً، ونفساً، وروحاً، وأن له ذاكرة، وعقلاً، وإرادة، وذكاء، وحساً، ولكي تكون لهذه فائدة ومعنى فقد أعطى الإنسان موهبة الإدراك. كما نعلم كذلك أن هذه جميعها، بالإضافة إلى صفات جبلته المتعددة تكوّن الذات البشرية كلها. هذه كلها هبات من الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

رتبتها الحكمة المتناهية غير المحدودة، وهي النغمات التي تكوّن أعلى سيمفونية للخليقة، أو الخيوط التي تشكل النسيج المثالي، نسيج الكون البديع.

ولكننا في كل هذا نفكر أفكار المخلوقات ونستخدم كلمات المخلوقات لكي نعبر عنها، ولكن لا يمكن لأفكار كهذه ولا لكلمات كهذه أن تتناسب مع اللاهوت. يقول قانون الإيمان الأثناسيوسي: "الآب ليس من أحد، فهو غير مخلوق وغير مولود، والابن من الآب وحده، غير مصنوع، وغير مخلوق بل مولود. والروح القدس من الآب والابن، غير مخلوق وغير مصنوع وغير مولود، بل منبثق." فالله كائن في ذاته ومن ذاته، وهو لا يدين بوجوده لأحد، وجوهره لا يتجزأ، وليس له أجزاء بل هو واحد في وجوده الواحد.

ونظرية الوحدة الإلهية لا تعني فقط أنه يوجد إله واحد بل تعني أيضاً أن الله بسيط، غير معقد، متفق مع ذاته. وتوافق كيانه ليس نتيجة لعدم وجود أجزاء. ولا يمكن أن يكون هناك تناقض بين صفاته، وليس هو بحاجة إلى توقيف صفة حتى ينفذ صفة أخرى، إذ كل صفاته فيه واحدة، فالله، كل الله، يعمل كل ما يعمله الله. فهو لا يقسم ذاته ليقوم بعمل ما، بل هو يعمل في وحدة كيانه الكلية.

فأية صفة من صفات الله إذن هي جزءً من الله، بل هي عبارة عن كيف يكون الله، وعلى قدر ما تسعفنا عقولنا المفكرة نستطيع أن نقول أن الصفة هي ما يكون الله عليه، مع أن الله لا يمكن أن يخبرنا بالضبط ما هو عليه، كما حاولنا إيضاحه من قبل. والله وحده يعلم ما يعيه إذ يعي ذاته "أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله". فالله لا يفصح عن سر لاهوته إلا لمن هو متساوٍ معه، ومن سخف الفكر أن نظن أن هناك من هو مساوٍ لله.

إن الصفات الإلهية هي ما نعلم بأنها حق عن الله، وهو لا يحتويها كسجايا، بل هي كيف يكون الله حسب ما يعلن الله نفسه لخلائقه. فالمحبة مثلاً ليست شيئاً يملكه الله قابلاً للزيادة أو النقصان آو التلاشي، بل أن محبته تعالى هي كيف يكون الله، وعندما يحب فإنه إنما يكون نفسه. وكذلك الحال مع باقي الصفات:

إله واحد! واحد الجلال!

ليس غيرك إله!

وحدة لا حدود لها، وغير قابلة للاتساع

أيها البحر الذي لا يسبر غوره

أنت منبع الحياة كلها

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وحياتك هي وحدتك المباركة.

فريدرك و. فايبر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الرابع: الثالوث الأقدس

يا إله آبائنا، المتوج بالنور والبهاء، ما أغنى اللغة العربية وما أشجى موسيقاها. ومع ذلك فعندما نحاول أن نحدث بعجائبك فما أفقر كلماتنا، وما أبعد حديثنا عن أي نغم موسيقي. وعندما نتأمل في سر الثالوث الإلهي المهوب فإننا نضع أيدينا على أفواهنا، إننا نقف أمام العليقة المشتعلة ولا نطلب الفهم والمعرفة بل نطلب أن نعبدك كما يليق، أيها الإله الواحد المثلث الأقانيم – آمين.

إننا عندما نتأمل في الأقانيم الثلاثة للاهوت نسير بأفكارنا عبر جنة عدن ونطأ أرضاً مقدسة. ولا بد أن تبقى عقيمة ضعيفة إلى الأبد أخلص جهودنا لمعرفة سر التثليث البعيد عن الإدراك، ولا ينقذ هذه الجهود المخلصة من الفضول والتجاسر إلا خشيتنا العميقة واحترامنا الكثير.

ولقد أنكر فكرة الإله المثلث الأقانيم أولئك الذين يرفضون كل نظرية لا يستطيعون تعليلها. فهم إذ يحاولون فهم العلي بنظرتهم الباردة الجسدية يخلصون إلى القول بأنه يستحيل أن يكون الله واحداً وثلاثة في آن واحد، وينسون أن حياتهم كلها يحيط بها الغموض، وقد فاتهم أن أية محاولة صادقة لتفسير أبسط الظواهر الطبيعية تكمن في غموض وإبهام وليست أيسر من فهمها من سر الثالوث الأقدس.

وحتى الإنسان نفسه يحيا بالإيمان، سواء أكان غير مؤمن أم كان قديساً، فذلك بالإيمان في نواميس الطبيعة وهذا بالإيمان بالله. وكل إنسان دائب طوال حياته على قبول أشياء لا يمكنه أن يتفهمها. وأكثر الحكماء علماً يمكن إسكاته تماماً أمام سؤال بسيط هو "ماذا؟". والإجابة عن هذا السؤال تكمن للأبد في هوة من الغموض بعيدة عن قدرة الإنسان على الكشف والمعرفة "الله يفهم طريقها وهو عالم بمكانها" أما الإنسان الفاني فلا يعلمها.

ويقلد توماس كارلايل Thomas Carlyle أفلاطون فيرسم صورة إنسان وثني متعمق في التفكير، وصل سن النضوج منزوياً في كهف لا يعلم من أمر الدنيا شيئاً، ثم أخرج من الكهف فجأة ليرى الشمس وهي تشرق في الصباح، ثم يتسائل كارلايل: "كم تكون دهشته، وكم يكون عجبه لذلك المنظر الذي نشاهده كل يوم دون أن يثير منا أية مبالاة. إن قلبه يلتهب لهذا المشهد بإحساس الطفل الطلق المتفتح ولكن بإدراك الرجل الناضج. وهذه الأرض الصخرية الثابتة، الخضراء المزهرة، والأشجار، والجبال، والأنهار، والبحار الكثيرة التي تعج مياهها، وذلك البحر الأزرق المتناهي فوق رؤوسنا، والرياح التي تعصف بأرجائه والسحاب الداكن الذي يتجمع، فيسكب أحياناً، وأحياناً برداً وسيولاً..... ما هو؟ نعم ما هو؟ في عمق أعماقه نحن لا نعلم سره بعد، ولا يمكننا أن نعلمه".

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

كم نختلف نحن الذين اعتدنا رؤية هذه، وألفنا وفرة العجائب. ثم يمضي كارلايل فيقول: "نحن لا نتغلب على هذه الصعوبة ببصيرتنا الخارقة بل ببساطتنا الفائقة، وعدم انتباهنا، وافتقارنا إلى البصيرة. لأن عجبنا يبطل عندما يكف عن التفكير... فنسمي تلك النار المنبعثة من السحابة المرعدة كهرباء، ثم نحاضر عنها علمياً، ونولّد مثلها من احتكاك الزجاج بالحرير، ولكن ما هي؟ ومن أين تأتي؟ وإلى أين تذهب؟ لقد فتح العلم أمامنا آفاقاً كثيرة ولكنه علم مسكين ذلك الذي يحجب عنا الوحي الإلهي المقدس العظيم العميق، الذي لا يمكننا أن نرقى إليه والذي يطفو فوقه كل علم كما يطفو الزبد فوق الماء العميق. وبالرغم عن العلم والعلماء فإن عالمنا هذا لا يزال لغزاً، عجيباً، عويصاً، كالسحر أو أكثر أمام كل من يريد أن يمعن النظر فيه".

لقد مضى على كتابة هذه الكلمات النافذة، التي تكاد أن تكون نبوة، أكثر من مائة عام، ولكن العلم بتقدمه الخاطف الذي يكاد أن يحبس الأنفاس منذ أن قيلت إلى يومنا هذا لم ينقض كلمة واحدة منها ولم يجعل حرفاً واحداً منها يبدو وكأنه عتيق قد عفا عليه الدهر – فنحن لا نزال لا نعلم، ونحاول أن نخفي خجلنا بترديد طائش لرطانة العلم الشائعة.إننا نستخدم الطاقة الهائلة التي تزدحم في عالمنا ونخضعها للمسة من أصابعنا في سياراتنا وفي مطابخنا ونجعلها تخدمنا كأنها الجن لعلاء الدين، ولكننا ما زلنا لا نعلم ما هي – فالأمور الدنيوية، والمادية، وضغط ما حولنا علينا، كل هذه قد جعلت النور الذي في نفوسنا يخبو،وحولتنا إلى جيل من الآليين – إننا نستر جهلنا الفاضح بكلمات فقط، ولكننا نخجل من أن نبدي دهشتنا، ونخشى من أن نهمس قائلين "إنه سر"

ولم تتردد الكنيسة يوماً في تلقين مبدأ التثليث، وقد أدت شهادتها دون ما ادعاء أنها تفهم، ولقد كررت ما يعلمنا إياه الكتاب المقدس –ولقد أنكر البعض أن الكتاب المقدس يعلم أن الله ثلاثة أقانيم زاعمين أن فكرة التثليث في واحد هي تناقض في الكلمات، ولكننا ما دمنا عاجزين عن تفهم سقوط ورقة شجر على الطريق أو فقس بيضة عصفور في عشه فلماذا يكون التثليث عقدة بالنسبة لنا؟ قال مايكل دي موليوس: "إن تفكيرنا عن الله، بمعرفتنا أنه فوق كل إدراك وفوق كل فهم لنا، يكون أكثر علواً منه بتخيلنا له تحت أية صورة، أو جمال مخلوق يرسمه فهمنا الخشن."

ولم يكن كل الذين سموا أنفسهم مسيحيين عبر الأجيال يدينون بمبدأ التثليث، ولكن كما أضاء الحضور الإلهي في عامود النار على محلة الشعب القديم في سفرهم في البرية معلناً الشعب للعالم إذ ذاك كذلك أضاء الإيمان بالتثليث منذ أيام الرسل على كنيسة المسيح في سيرها عبر السنين. ولقد تبعت هذا الإيمان الطهارة والقوة. وسار تحت هذه الراية الرسل، والآباء، والشهداء، والمتصوفون، وناظمو الترانيم الروحية، والمصلحون، ودعاة النهضة،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وقد ختم الله على حياتهم وتعبهم بخاتم الرضى والقبول – على أنهم ربما قد اختلفوا فيما بينهم على أمور ليست جوهرية، ولكن عقيدة التثليث ربطتهم معاً.

إن القلب يعترف بما يعلنه الله دون ما حاجة إلى برهان آخر. بل أن البحث عن برهان تسليم بالشك، والعثور على برهان يجعل الإيمان غير ضروري. وكل إنسان أوتي بموهبة الإيمان يعرف حكمة تلك الكلمات الجريئة التي نطق بها أحد آباء الكنيسة الأولين: "أنا أؤمن أن المسيح مات عني لأن هذه الحقيقة بعيدة التصديق، وأنا أؤمن أنه قام من الأموات لأن هذا مستحيل".

ذاك كان موقف ابراهيم الذي بالرغم من كل البينات المضادة تقوى في الإيمان معطياً مجداً لله. وكان ذلك أيضاً موقف انسلم Anselm الملقب "أوغسطين الثاني" وهو من عظماء المفكرين في العصر المسيحي، والقائل بأن الإيمان يجب أن يسبق كل محاولة للفهم، وطبيعي أن التأمل في الحقائق المعلنة يتبع خطوة الإيمان، إلا أن الإيمان يأتي أولاً للأذن التي تسمع، لا إلى الذهن المفكر. فالإنسان المؤمن لا يتأمل في الكلمة أولاً ثم يصل إلى الإيمان بطريق البحث العقلي، كما أنه لا يطلب تثبيت إيمانه بطريق الفلسفة أو العلم، بل أن صيحته هي: "يا أرض، يا أرض اسمعي كلمة الرب - نعم- ليكن الله صادقاً وكل إنسان كاذباً".

فهل معنى ذلك أننا نحكم على الدرس أو العلم بأنه عديم القيمة في مجال الإعلان الديني؟ كلا وحاشا، فالدارس يلعب دوراً هاماً في حدود متيقنة التعيين. وواجبه أن يضمن سلامة النص، وأن يدقق جهد طاقته في الالتزام بالكلمة كما أعطيت أصلاً. وله أن يقرن الكتاب بالكتاب حتى يعرف المعنى الحقيقي للنص. وهنا تنتهي سلطته. فلا يجب عليه أبداً أن يأخذ مكان الحكم على ما هو مكتوب، ولا يجب عليه أن يجرؤ على وضع معنى الكلمة في قفص الاتهام أمام عقله. ولا يجب عليه أن يجرؤ على امتداح الكلمة او الحكم عليها بأنها معقولة أو غير معقولة أو أنها علمية أو غير علمية. فبعد أن يعرف المعنى فإن ذلك المعنى هو الذي يحكم عليه, وليس هو الذي يحكم على المعنى.

إن عقيدة التثليث حق للقلب، وروح الإنسان فقط هي التي تستطيع أن تدخل إلى ما داخل الحجاب إلى قدس الأقداس. وهكذا صرح أنسلم: "دعني أطلبك في شغفي وأشغف بك في طلبي.... دعني اهتدي إليك في محبة واجبك في اهتدائي إليك." فالمحبة والإيمان يدخلان إلى سر اللاهوت، أما العقل فليركع بخشوع خارجاً.

لم يتردد المسيح في استعمال صيغة الجمع عندما كان يتكلم عن نفسه والآب والروح القدس: "وإليه نأتي عندما نصنع منزلاً." إلا أنه قال أيضاً: "أنا والآب واحد" ومن المهم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

جداً أن نفتكر عن الله كثالوث في توحيد، فلا نخلط بين الأقانيم ولا نفرق في الجوهر. عندئذ فقط تستقيم فكرتنا عن الله بأسلوب يليق به وبنفوسنا.

لقد كانت دعوى المسيح بأنه معادل لله هي التي أثارت حنق رجال الدين في أيامه وأدت في النهاية إلى صلبه، كما كان هجوم آريوس Arius وغيره بعد قرنين من الزمن موجهاً ضد دعوى المسيح للاهوته –وفي أثناء نقاش آريوس اجتمع ٣١٨ من آباء الكنيسة في نيقية (وكان كثيرون منهم مشوهين وبهم آثار الجروح نتيجة ما لاقوه من عنف واضطهاد في الماضي) ووضعوا قانون الإيمان الذي نورد منه الفقرة التالية:

أؤمن برب واحد يسوع المسيح

ابن الله الوحيد

مولود منه قبل الدهور

إله من إله، نور من نور

إله حق من إله حق

مولود غير مخلوق

مساوٍ للآب في الجوهر

الذي به كان كل شيء.

ولقد ظل هذا بحقٍ محك الصحة والاستقامة في الإيمان على مدى ستة عشر قرناً، فهو يلخص بلغة لاهوتية تعليم العهد الجديد عن مكان الابن في اللاهوت.

كما يشيد قانون نيقية بالروح القدس بأنه مساوٍ للآب والابن:

أؤمن بالروح القدس

رب الحياة ومعطي الحياة

الذي من عند الآب والابن ينبثق

الذي مع الآب والابن معاً

يُعبد ويُمجد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وعقيدة قانون الإيمان القديم هذا أمسكت بها الكنيسة الشرقية والغربية كما تمسك الكل بها اللهم إلا قلة ضئيلة من المسيحيين، بغض النظر عن السؤال هل الروح القدس ينبثق من الآب فقط، أو من الآب والابن معاً.

ولقد عني واضعوا قانون الإيمان الأثناسيوسي عناية فائقة بالتعبير عن علاقة أقانيم الثالوث الواحد بالآخر، محاولين قدر الطاقة أن يتغلبوا على فجوات الفكر البشري وملتزمين بحدود الوحي المقدس. فجاء في قانون الإيمان هذا: "في هذا الثالوث ليس من هو قبل ومن هو بعد، وليس من هو أعظم أو أقل، بل الأقانيم الثلاثة سرمديون معاً ومتساوون".

فكيف تتفق هذه الكلمات مع قول المسيح: "لأن أبي أعظم مني". لقد عرف ذلك أولئك اللاهوتيون القدماء فدونوا في قانون الإيمان ما يلي: "مساوٍ للآب في لاهوته، أقل من الآب في ناسوته." فهذا التفسير خليق بأن يقبله كل مدقق مخلص في بحثه عن الحق في موضوع يخطف بريقه الأبصار.

ولكي يفدي الجنس البشري لم يبرح الابن السرمدي حضن الآب"، ثم قال عن نفسه أيضاً "ابن الإنسان الذي هو في السماء". ونحن نسلم بأن في هذا سراً ولكن لا نرى في ذلك ارتباكاً ولا التباساً. ففي ظهور ابن الله في الجسد تحجّب لاهوته ولكنه لم يخل نفسه منه، فوحدة اللاهوت تجعل من المستحيل أنه يتخلى عن أي شيء من لاهوته. وعندما تسربل بطبيعة الإنسان لم ينقص من نفسه، ولم يصر أقل مما كان قبلاً حتى ولو إلى زمن يسير، فالله لا يمكن أن ينقص عن نفسه، ولا يمكن أن يتصور أن يصير الله شيئاً لك يكنه من قبل.

ولما كان أقانيم اللاهوت واحداً، فلهم إرادة واحدة، فهم دائماً يعملون متحدين معاً، ولا يقوم أقنوم بأبسط عمل إلا والموافقة فورية من الأقنومين الآخرين، فكل عمل من الله يتم من الثالوث في وحدته. ونراها هنا مساقين بالضرورة إلى تفهم الله بلغة بشرية، فنحن نفكر في الله بالقياس على الإنسان، ولا بد إذاً من أن تقصر النتيجة عن الحق النهائي، ولكننا على أي حال إذا ما أردنا أن نفكر عن الله فلا بد لنا من استعمال الأفكار التي تستعملها المخلوقات والكلمات التي تتفاهم بها المخلوقات ونطبقها على الخالق. ومن الخطأ، إذا أمكن فهم الخطأ، أن نتصور أن أقانيم اللاهوت بحثوا الواحد مع الآخر واتفقوا بعد تبادل الآراء كما يعمل البشر. ولقد بدا لي دائماً ملتون Milton في شعره الشهير "الفردوس المفقود" قد أدخل عنصراً ضعيفاً عندما يصور أقانيم اللاهوت في حديث الواحد مع الآخر عن فداء الجنس البشري.

وعندما جاء ابن الله على الأرض باعتباره ابن الإنسان تحدث كثيراً إلى الآب وأجابه الآب إجابته لابن الإنسان، فهو الآن يتشفع لدى الآب عن شعبه. والحديث المدون في الكتاب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

المقدس عن الآب والابن يجب أن يفهم دائماً على أنه بين الآب السرمدي والإنسان يسوع المسيح. إن الشركة الفورية بين أقانيم اللاهوت التي هي منذ الأزل فلا تعرف صوتاً ولا جهداً ولا تصوراً:

وسط السكون الأبدي

نطق الله بكلمته اللا نهائية

ولم يسمع أحد إلا من يتكلم دائماً

والسكون لا ينقطع

أيها العجيب! أيها المعبود!

لم تسمع تسبيحة أو صوت

ولكن في كل مكان وفي كل ساعة

في محبة، وفي حكمة، وفي قوة

الآب ينطق كلمته الحبيب السرمدي

فريدريك و. فابير

هناك اعتقاد شائع بين المسيحيين بتقسيم عمل الله بين الأقانيم الثلاثة، لكل منهم عمله الخاص، فالخلق مثلاً للآب والفداء للابن، والتجديد للروح القدس، وهذا صحيح جزئياً لكنه ليس صحيحاً في مجموعه فالله لايمكن أن يقسم ذاته بمعنى أن أقنوماً يعمل بينما الأقنومان الآخران بلا عمل، ونحن نرى الأقانيم الثلاثة في الكتاب المقدس يعملون في وحدة متناسقة كل الأعمال العظيمة التي تتم في هذا الوجود.

وعمل الخلق في الكتاب المقدس منسوب للآب (تك١:١)، والابن (كو١:١٦)، وللروح القدس (أي٢٦:١٣ ومز١٠٤:٣٠). والتجسد نراه قد تم بعمل الأقانيم الثلاثة في وفاق تام (لو١:٣٥). ولو أن الابن وحده هو الذي صار جسداً وحل بيننا. وفي أثناء معمودية المسيح، صعد الابن من الماء، ونزل الروح القدس واستقر عليه، وتحدث صوت الآب من السماء (مت٣:١٦و١٧). ولعل أبدع وصف لعمل الفداء هو في (عب٩:١٤) حيث نقرأ أن المسيح، بالروح الأزلي، قدم نفسه لله بلا عيب، فنرى الأقانيم الثلاثة يعملون معاً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وكذلك فإن قيامة المسيح تنسب بشكل أو بآخر إلى الآب (أع ٢:٣٢) وللابن (يو١٠:١٧و ١٨)، وللروح القدس (رو ١:٤). وخلاص أي إنسان ما يتحدث عنه الرسول بطرس بأنه عمل أقانيم اللاهوت الثلاثة (١بط ١:٢)، وفي نفس الشخص المسيحي يسكن الآب، والابن، والروح القدس (يو ١٤:١٥-٢٣).

فعقيدة التثليث، كما أسلفنا، هي حق يعيه القلب، وكون شرحها شرحاً مقبولاً أمراً متعذراً لا ينهض دليلاً ضدها، بل على العكس من ذلك هو دليل يدعمها. فحق كهذا بعيد عن تصور الإنسان ويجب أن يعلن إعلاناً:

أيها الثالوث المبارك!

أيها الجلال الأبسط! أيها الثلاثة في واحد!

أنت هو الله وحدك إلى الأبد

أيها الثالوث الأقدس!

الثلاثة المتساوون المباركون

الإله الواحد، إننا نحمدك.

فريدريك و. فابير

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الخامس: وجود الله بذاته

يا سيد الوجود! أنت وحدك الذي تستطيع أن تقرر وتؤكد قائلاً اهيه الذي اهيه. ومع ذلك فنحن الذين خلقنا على صورتك، يستطيع كل واحد منا أن يقول "أنا هو"، وكأنما ذلك اعتراف منا أننا منك مأخوذون، وأن كلماتنا ما هي إلا صدى لكلماتك. نحن نعترف بأنك أنت الأصل العظيم، وأننا نحن صورة شاكرة لك، ولو أننا صور غير كاملة. إننا نسجد لك أيها الآب السرمدي، آمين.

قال نوفاتيان" :Novatian الله ليس له منشأ" وهذا الرأي بالذات بانتقاء المنشأ هو الذي يميز من هو الله عمن ليس هو الله.

والمنشأ كلمة يمكن تطبيقها على المخلوقات فقط. وعندما نفكر في أي شيء له منشأ فإننا لا نفكر عن الله. فالله قائم بذاته، بينما كل المخلوقات نشأت بالضرورة في وقت ما. وليس غير الله قائم بذاته.

ونحن بمحاولتنا الوصول إلى منشأ الأشياء نعترف بأننا نؤمن بأن كل شيء قد كان ممن لم يكن من أحد، ويعلمنا اختبارنا العادي أن كل شيء "قد أتى" عن شيء آخر. وكل ما هو كائن لا بد أن له علة سبقته وكانت على الأقل مساوية له بما أن الأصغر لا يمكن أن ينتج الأكبر. فكل شخص وكل شيء يمكن أن يكون معلولاً وعلة في الوقت عينه لشيء آخر، وهكذا حتى نرجع إلى ذلك الذي هو العلة أو الأصل للكل والذي ليس هو معلولاً أو نتيجة لآخر.

والطفل الذي يسأل "ما هو منشأ الله؟" يعترف ضمناً بأنه هو مخلوق. فمبدأ العلة والمنشأ والأصل متأصل وثابت في عقله. فهو يعلم أن كل ما هو حوله نشأ عن شيء خارج عن نطاقه، وهو إنما يرقى بهذا المبدأ إلى أعلى، إلى الله. فذلك الفيلسوف الصغير "الطفل" يفكر بأسلوب بشري، وتفكيره سليم، بغض النظر عن جهله بالحقائق الأساسية، فيجب أن نقول له أن الله ليس له منشأ، ولسوف يجد هذا القول عسير الفهم لأنه يضع أمامه باباً لا عهد له به على الإطلاق، ويناقض اتجاهه بالبحث عن أصل الأشياء، ذلك الاتجاه المتأصل في كل الكائنات العاقلة، والذي يدفعهم إلى البحث في الماضي نحو بداءات لم تكتشف بعد.

وليس من السهل أن نفكر تفكيراً منتظماً عن شيء لا تنطبق عليه فكرة المنشأ بل يكاد أن يكون ذلك أمراً متعذراً. فكما أنه من الممكن رؤية نقطة ضوئية صغيرة تحت ظروف معينة، ليس عن طريق النظر إليها مباشرة، بل بإمعان النظر إلى أحد جوانبها، فكذلك الأمر بالنسبة لمن ليس هو مخلوقاً. فعندما نحاول أن نركز أفكارنا على الطاهر غير المخلوق،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فقد لا نرى شيئاً على الإطلاق، فهو ساكن في نور لا يدنى منه، ونحن نستطيع عن طريق المحبة والإيمان وحدهما أن نلمح قبساً منه إذ يمر بمخبئنا في فقرة الصخر، "ومع أن معرفة كهذه معرفة عامة غامضة وغير واضحة". كما يقول مايكل مولينوس Michael Molinos: "إلا أنها باعتبارها فوق الطبيعة تخلق معرفة عن الله أكثر وضوحاً وكمالاً من أي إدراك معقول خاص يمكن تكوينه في هذه الحياة، لأن كل الصور الجسمانية المعقولة بعيدة كل البعد عن الله".

ولما كان العقل البشري مخلوقاً، لذلك يسهل علينا فهم قلقه بشأن غير المخلوق، فنحن لا نشعر بالارتياح في حضرة من هو خارج نطاق دائرة معرفتنا المألوفة، فيساورنا الجزع والاضطراب عندما نذكر من لا يعرّفنا عن كيانه، سبحانه وتعالى، الذي لا يسأل عما يفعل، والقائم بذاته، ولا يعتمد على أحد، وليست به حاجة لأحد.

والفلسفة والعلم لم يكونا دائماً في موقف ودّي تجاه فكرة الله. والسبب في ذلك أنهما مكرسان لواجب هو تعليل الأشياء، فلا يحتملان شيئاً ما يرفض أن يشرح نفسه. والفيلسوف والعالم كلاهما يعترفان بأن هناك الكثير مما يجهلانه، ولكن هذا أمر يختلف كل الاختلاف عن الاعتراف بأن هناك شيئاً لا يمكن لهما أن يعرفاه، ولا سبيل لهما للكشف عنه.
واعترفنا بأن هناك من هو فوق مستوانا، وهو كائن خارج نطاق كل أجناسنا، ولا يمكن أن يمثل أمام محكمة العقل، ولا يخضع لاستفساراتنا الاستقصائية، هذا الاعتراف من جانبنا يتطلب تواضعاً كثيراً، أكثر مما في طاقة الغالبية العظمى منا، ولذلك فنحن نغطي خجلنا بالتفكير عن الله في مستوانا نحن، أو قل في المستوى الذي يمكّننا منه تعالى، ومع ذلك فما أكثر ما يبتعد عنا. فهو حاضر في كل مكان بينما هو لا يحده مكان، إذ كلمة "المكان" تتعلق بالمادة والمسافة، والله مستقل عن هاتين، فهو لا يخضع لزمان أو حركة فهو قائم بذاته بالكلية، ولا يدين ما للعوالم التي أبدعتها يداه:

لا يحدك زمان، ولا مكان، فرد، أو حد

ومع ذلك فأنت ثلاثة مجيد

أنت العظيم، دائماً، وحدك

الله في وحدة

فريد في البهاء، فريد في المجد

من ذا الذي يستطيع أن يخبر بوصفك العجيب

أيها الثالوث العظيم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فردريك و.فايبر

ومما لا يدعو إلى السرور أن ملايين منا ممن يعيشون في بلاد ينتشر فيها الكتاب المقدس، وينتمون إلى الكنائس، ويعملون لنشر الإيمان المسيحي. قد يقضون كل حياتهم على الأرض دون أن يفكروا مرة واحدة أو أن يحاولوا أن يفكروا مرة واحدة تفكيراً جدياً عن كيان الله. وقليلون منا هم الذين سمحوا لقلوبهم أن تشخص في عجب إلى ذاك الذي قال اهيه، إلى الذات الكائن بذاته، الذي لا يتعداه فكر مخلوق. إن أفكاراً كهذه لمؤلمة جداً لنا. فنحن نفضل أن نفكر حيث يجدي التفكير وينفع، نفكر في كيف نصنع مصيدة للفئران مثلاً، أو في كيف نجعل عودين من الحشيش ينموان في مكان كان ينمو فيه عود واحد فقط. ولهذا السبب نحن ندفع عنا غالباً الآن إذ طغت الأمور العالمية على ديانتنا وفسدت حياتنا الداخلية.

ولعل مسيحياً مخلصاً ولكنه متحير يتساءل هنا ما هو النفع العملي لآراء كتلك التي أبسطها هنا. ولعله يسأل: "وما تأثير ذلك في حياتي؟ وما مغزى كون الله قائماً بذاته بالنسبة لي ولمن هم على شاكلتي في عالم كهذا وفي أوقات كهذه؟"

لمثل هذا أقول أننا لما كنا عمل يدي الله لذلك فمشاكلنا كلها وحلولها إنما هي لاهوتية، فيلزمنا إذن بعض المعرفة عن كنه الإله الذي يدير الكون لتكون لنا فلسفة صحيحة ونظرة سليمة على مسرح العالم. إنّ النصيحة المأثورة عن ألكسندر بوب Alexander Pope: اعرف إذن نفسك ولا تجترئ على البحث في الله.

فإن الدراسة المثلى للبشرية هي دراسة الإنسان. هذه النصيحة إذا ما اتبعت حرفياً دمرت كل محاولة لمعرفة الإنسان نفسه اللهم إلا المعرفة التي هي غاية في السطحية، فنحن لا يمكن أن نعرف من نحن أو ما نحن إلا إذا توفرت لدينا معرفة ولو يسيرة عن كنه الله. ولهذا السبب فإن كون الله قائماً بذاته ليس تعليماً جافاً علمياً بعيد المنال بل هو في الحقيقة قريب إلينا قرب أنفاسنا وعلمي كأحدث طريقة جراحية.

ولأسباب لا يعلمها إلا الله وحده شرّف الله الإنسان على كل مخلوقاته بأن خلقه على صورته، وليكن معلوماً أن الصورة الإلهية ليست خيالاً شعرياً، ولا هي فكرة وليدة الأشواق الدينية، بل هي حقيقة لاهوتية راسخة يعلمنا إياها الكتاب المقدس وتعترف بها الكنيسة كحق لازم لفهم الإيمان المسيحي فهماً صحيحاً.

فالإنسان كائن مخلوق، نفسٌ حادثةٌ مقتبسةٌ، لا يملك شيئاً من تلقاء نفسه، بل هو يعتمد في بقائه كل لحظة على من خلقه على صورته. فحقيقة الله لازمة ضرورية كحقيقة الإنسان. فلو استبعدنا الله من أفكارنا لما كان للإنسان مكان لوجوده.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ومن العقائد الأساسية للإيمان المسيحي والمحبة المسيحية أن الله كل شيء وأن الإنسان لا شيء. وفي هذا نجد أن تعاليم المسيحية تتفق مع أكثر الفلسفات الدينية تقدماً في الشرق فالإنسان بكل عبقريته ونبوغه ما هو إلا صدى من الصوت الأصلي الإلهي، هو انعكاس للنور الذي لم يخلق. وكما أن شعاع الشمس يتلاشى إذا هو انفصل عن الشمس، فكذلك الإنسان بدون الله يضمحل إلى فراغ العدم الذي قفز منه إلى الوجود عندما سمع الدعوة الخالقة.

وليس الإنسان وحده هو الذي أوجدته القوة الخالقة وهو قائم بها بل أن ذلك ينطبق على كل ما هو كائن. "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله..... كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان". تلك هي الطريقة التي يفسر بها يوحنا تلك الحقيقة، ويتفق معه في ذلك بولس الرسول: "فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين الكل به وله قد خلق الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل." وإلى هذا يضم كاتب الرسالة إلى العبرانيين صوته فيشهد عن المسيح أنه بهاء مجد الله ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته.

وفي هذا الاعتماد الكلي على إرادة الله الخالقة تكمن الإمكانية للقداسة وللخطية أيضاً. فإن إحدى علامات صورة الله في الإنسان هي قدرته على الاختبار الأدبي. والمسيحية تعلمنا أن الإنسان اختار أن يكون مستقلاً عن الله وقد أيد اختياره هذا بأن عصى أمراً إلهياً. ولقد كسر عمله هذا العلاقة التي كانت قائمة بحكم الطبيعة بين الله وبين المخلوق الذي عمله، واستبعد الله كأساس الوجود وأجلس الإنسان وحيداً إلى نفسه، فلم يعد كوكباً يدور حول الشمس المركزية بل غدا شمساً قي حد ذاته يجب أن يدور كل شيء حوله.

ولا يمكن لكلمات أن تعبر عن النفسية أكثر من تلك التي نطق بها الله لموسى "اهيه الذي اهيه"، فكل كيان الله وكل ما هو الله واضح في هذا الإعلان غير المقيد عن الكيان المستقل. على أن النفس في الله ليست خطية بل هي جوهر كل صلاح وقداسة وحق.

فالإنسان الطبيعي خاطئ لا لشيء إلا لأنه يتحدى نفسية الله بالنسبة لنفسيته هو. وقد يقبل عن طيب خاطر سيادة الله، في كل شيء إلا في حياته حيث يرفضها. فبالنسبة له فإن سلطان الله ينتهي حيث يبدأ سلطانه هو. وبالنسبة له تغدو نفس النفس بال التعريف، وهو بذلك يقلّد لوسفير (زهرة بنت الصبح) بغير وعي، ذلك الذي سقط إذ قال في قلبه "أصعد إلى السموات أرفع كرسيّ فوق كواكب الله... أصير مثل العلي."

على أن النفس محتالة لدرجة أنه يكاد لا يشعر أحد بوجودها ولأن الإنسان ولد ثائراً فإنه لا يشعر بأنه ثائر، ومحاولاته المستمرة في إثبات نفسه، على قدر ما يتنبه لما يفعل، تبدو له طبيعية تماماً. فهو مستعد أن يقتسم نفسه، بل قل أن يضحي بنفسه للوصول إلى غرض

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

منشود، ولكنه ليس مستعداً أبداً أن ينزل نفسه عن عرشها الذي تحتله، ومهما انزلق في الميزان الاجتماعي فهو لا يزال في عيني نفسه ملكاً متربعاً على عرش، وليس أحد، حتى ولا الله، بمنتزع ذلك العرش منه.

وللخطية مظاهر كثيرة ولكن جوهرها واحد، فذلك الكائن ذو المسؤولية الأخلاقية الذي خلق لكي يعبد أمام عرش الله، يتربع على عرش نفسيته ويعلن من ذلك المركز الرفيع "أنا"، وتلك هي الخطية في جوهرها المركز، ولكن لما كانت طبيعية فإنها تبدو حسنة، ولن يصحو الضمير ويستيقظ ليدرك هذا التناقض الأدبي المخيف إلا إذا وقفت النفس بواسطة الإنجيل عارية عن ستار الجهل وجهاً لوجه أمام الإله القدوس. وهذا ما نسميه في لغة اللاهوت بتبكيت الإنسان أي وقوفه أمام نار حضرة الله القدير. ولقد أشار المسيح إلى هذا عندما قال عن الروح الذي وعد بإرساله إلى العالم "ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة".

كان التحقيق الأول لهذه الكلمات يوم الخمسين بعد أن ألقى بطرس أولى العظات المسيحية العظيمة "فلما سمعوا نخسوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الرسل ماذا نصنع أيها الرجال الأخوة." إن هذا السؤال "ماذا نفعل" لهو صرخة القلب العميقة لكل إنسان يتنبه فجأة إلى الحقيقة المرة وهي أنه مغتصب يتربع على عرش مسروق. ومهما كان المر مؤلماً فإن ذلك الفزع هو الذي يولد التوبة ويتمخض عن مسيحي قوي بعد أن ينزل التائب عن العرش المغتصب ويجد الغفران والسلام بوساطة الإنجيل.

وكما يقول كيركغارد" : Kierkegaard إن طهارة القلب هي توجيه الإرادة نحو هدف واحد." وكذلك نستطيع نحن أن نعبر عن حقيقة مماثلة إذا ما عكسنا العبارة فنقول: "إن جوهر الخطية هو توجيه الإرادة نحو هدف واحد." لأننا إذا ما وجهنا إرادتنا ضد إرادة الله فمعنى ذلك أننا ننزل الله عن عرش النفس ونتوج الذات ملكاً وحيداً بلا منازع في هذه المملكة الصغيرة. تلك هي الخطية في جذورها الشريرة. ولئن تكاثرت الخطايا كالرمل الذي على شاطئ البحر، إلا أنها في مرجعها واحدة، فالخطايا موجودة لأن الخطية موجودة. وهذا هو التعليل العقلي الذي تقوم عليه تلك العقيدة التي تعرضت لكثير من النقد والتجريح، والقائلة أن الإنسان فاسد بطبيعته، فالشخص غير التائب لا يستطيع إلا أن يخطئ، وإن أعماله الطيبة ليست طيبة على الإطلاق، إن الله لا يرضى عن أفخر أعماله الدينية، كما لم يرض عن تقدمة قايين. فأعماله لا يقبلها الله إلا إذا رد لله العرش السليب.

وجهاد الشخص المسيحي ليعمل أعمالاً صالحة بينما الميل إلى تثبيت الذات موجودة فيه في شكل رد فعل أخلاقي غير واعٍ، هذا الجهاد يصفه الرسول بولس وصفاً حياً بليغاً في الإصحاح السابع من رسالته إلى أهل رومية، وتعليمه هذا يتفق تماماً مع تعليم الأنبياء. ولقد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أوضح أشعياء النبي في نبوءته قبل مجيء المسيح بنحو ثمانمائة سنة أن الخطية هي عصيان على إرادة الله وهي تثبيت لحق كل إنسان في اختيار الطريق التي يسلك فيها، إذ قال: "كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلى طريقه." ولست أعتقد أن هناك وصفاً أدق من هذا للخطية.

وإن شهادات القديسين تتفق تماماً مع الأنبياء والرسل وهي أن أصل السلوك مرجعه مبدأ خفي في النفس، يحوّل كل ما يعمله الناس إلى شر. ولكي يخلصنا المسيح يلزم أن يعكس اتجاه طبيعتنا وأن يغرس فينا مبدأ جديداً لكي ينمو سلوكنا الجديد من رغبته في إعلان مجد الله والسعي لصالح الآخرين. يجب أن تموت الذات القديمة، والطريقة الوحيدة لإهلاك هذه الذات القديمة هي الصليب كما قال الرب: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني." وبعد ذلك بعدة سنوات قال الرسول بولس بلغة الانتصار: "مع المسيح صلبت فأحيى لا أنا بل المسيح يحيا فيّ".

يا رب، هل تبقى الخطية صامدة

وتصول وتجول في حياتي

لا يكفي أن تغفر لي

بل يجب أن يرتفع الصليب وأن تخر النفس صريعة

يا إله المحبة، أظهر قوتك

لا يكفي أن يقوم المسيح

بل يجب أن أصعد أنا أيضاً نحو السموات المشرقة

وأقوم من الموت كما قام المسيح.

من ترنيمة يونانية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل السادس: كفاية الله في ذاته

علّمنا يا رب أنك لست بحاجة لشيء، فلو أنك بحاجة إلى شيء لكان ذلك الشيء مقياس عدم كمالك، وكيف نعبد من ليس كاملاً. وإذا لم تكن بك حاجة لشيء ما فليست بك حاجة لأحد، وبالتالي ليست بك حاجة لنا. إنك تطلبنا مع أنك لست بحاجة لنا. أما نحن فنطلبك لأننا نحتاجك، لأننا بك نحيا ونتحرك ونوجد. آمين.

قال الرب: "الآب له حياة في ذاته"، ومن مميزات تعاليمه أنه يقرر في عبارة مختصرة حقائق بالغة في العلو حتى أنها تفوق كل ما يمكن للعقل البشري أن يصل إليه –قال أن لله الكفاية في ذاته، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى-

فكل كنه الله موجود في ذاته، وكل حياة هي فيه ومنه، سواء أكانت في أدنى صورها من حياة غير واعية أو في أرقى صورها من حياة الملائكية العاقلة الواعية جداً لذاتها. فليس من مخلوق له حياة في ذاته، إذ الحياة عطية من عند الله.

وعلى العكس من ذلك فإن حياة الله ليست عطية من آخر. ولو أن هناك من يستمد الله عطية الحياة منه، أو أية عطية أخرى، فإن ذلك الآخر يكون هو الله حقاً. وهناك طريقة بدائية ولكنها صحيحة نفكر بها عن الله وهي أن نتصوره كمن يحوي الكل، ومن يَمنح كل ما يُمنح، أما هو فلا يقبل شيئاً لم يعطه هو أولاً.

وإذا ما سلمنا بأن لله حاجة ما فمعنى ذلك تسليمنا بأن هناك نقصاً في الله –فكلمة الحاجة هي كلمة بشرية ولا تقال عن الخالق. فالله له علاقة طوعية إرادية بكل ما خلقه. ولكن ليست به علاقة عن ضرورة وحاجة بأي شيء خارج عن ذاته. إن لذّاته مع خلائقه تنبع من مسرته سبحانه وتعالى، وليست من حاجة تفي بها هذه الخلائق، ولا من كمالات تؤديها لمن هو كامل في ذاته.

ومرة أخرى يلزم أن نعكس مجرى أفكارنا العادي من محاولة لتفهم ما لا نظير له، وما هو حق فريد في هذا المجال وليس في سواه. إن عادتنا جميعاً في التفكير تعترف بوجود حاجة في المخلوقات. فليس شيء كاملاً في ذاته، بل هو يحتاج إلى شيء خارج عنه لتكتمل له أسباب الحياة. فكل المخلوقات التي تتنفس تحتاج إلى الهواء، وكل جسم حي يحتاج إلى الغذاء والماء. فلو أنك استبعدت الهواء والماء من على وجه الأرض لانعدمت الحياة حالاً ويمكن أن نقرر هنا إحدى البديهيات وهي أن كل مخلوق حي يحتاج شيئاً مخلوقاً آخر لكي يحيا، وكل المخلوقات تحتاج الله. أما الله وحده فلا حاجة به لشيء.

والنهر يزداد عن طريق روافده. ولكن أين هي الروافد التي تزيد من ذاك الذي منه أتى كل شيء والذي تحيى كل المخلوقات من ملئه غير المحدود.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أيها البحر الزاخر الذي لا يسبر غوره.

كل الحياة هي منك

أما حياتك فهي وحدتك السعيدة.

فريدريك و. فايبر

ولن يزال الغرض الذي من أجله خلق الله العالم يشغل بال المفكرين. على أننا إذا كنا نجهل الغرض فعلى الأقل نعلم أنه لم يخلق العالمين ليفي بحاجة في نفسه، كما يبني الإنسان بيتاً مثلاً ليحتمي به من برد الشتاء أو كمن يزرع حقله قمحاً ليحصل على ما يحتاجه من طعام. فكلمة ضرورة أو حاجة غريبة عن الله.

وبما أنه هو الكائن الأعلى على الكل فهو بالتالي غير قابل للرفعة إذ ليس من يعلو عليه ولا شيء بعده، وكل مخلوق يتحرك نحوه يرتفع بالضرورة، وكل ابتعاد عنه هبوط ونزول. وهو في مكانته بنفسه وليس بسماح من سواه. وكما أنه ليس من يرفّعه فكذلك ليس من يخفضه، وكما هو مكتوب أنه حامل كل الأشياء بكلمة قدرته فكيف إذن يرفع، أو كيف يسنده من هو حامله.

ولو افترضنا أن كل الناس أصيبوا بالعمى فجأة فإن الشمس سوف لن تقف عن الإشراق نهاراً ولا النجوم عن لمعانها ليلاً، إذ أن هذه لا تعتمد في شيء على الملايين الذين يفيدون من نورها. وهكذا لو أن كل إنسان على وجه البسيطة أصبح ملحداً فلن يؤثر ذلك في الله في شيء. فالله هو الله بذاته بغض النظر عمن عداه وإيمان الناس به لن يزيد شيئاً إلى كمالاته، كما لا ينقصه شيئاً الشك به وعدم الإيمان به.

فهو الله القدير لأنه قدير وحسب ولا يحتاج إلى دعامة. أما صورة إله سريع الانفعال، مستعطف، يتملق الناس ليكسب رضاهم فهي صورة لا تسر أبداً، ولكننا إذا ما تأملنا الفكرة السائدة عن الله فهي صورة تنطبق تماماً على ما أسلفنا. لقد جعلت مسيحية القرن العشرين من الله من يستحق الإحسان, فأفكارنا عن نفوسنا عالية بدرجة أننا نجد من السهل علينا, بل من الممتع لنا, أن نعتقد أننا لازمون لله. ولكن الحقيقة هي أن الله لا يزيد بوجودنا ولن ينقص بزوالنا. إن وجودنا لا يمكن أن يعزى إلا إلى مشورة الله المحتومة وليس إلى استحقاقنا أو إلى حاجة في الله إلينا.

ولعل أصعب فكر تحتمله أنانيتنا الطبيعية هي أن الله لا يحتاج معونة منا. وغالباً ما نصوره بصورة الأب المشغول, المتحمس, الدائم البحث عن معين لتنفيذ خططه الخيرية لإتمام السلام والخلاص للعالم. ولكن الله كما قالت السيدة جوليان: "رأيته يعمل كل شيء

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

مهما كان صغيراً أو عظيماً." فليس من شك في أن الله الذي يعمل كل شيء لا يحتاج معونة ولا معين.

إن الكثير من الدعوات التي يقدمها المبشرون تقوم على هذه الصورة التي يتخيلونها لله القدير وقد خاب أمله. ويستطيع الخطيب المفوّه أن يثير في سامعيه عواطف الشفقة, ليس فقط الشفقة على الوثنيين بل على الله الذي حاول مراراً وتكراراً ولزمن طويل, أن يخلصهم ولكنه لم ينجح في ذلك لأنه لم يحصل على المعونة اللازمة. وإني أخشى أن آلاف الشباب قد انخرطوا في الخدمة المسيحية لا لسبب إلا لكي يعاونوا في إنقاذ الله من الورطة التي أوقعته فيها محبته والتي تبدو موارده المحددة عاجزة عن تخليصه منها. أضف إلى ذلك قدراً من المثل العليا الحميدة وقدراً لا بأس به من الشفقة على من هم أقل حظاً تحصل على القوة الدافعة وراء كثير من النشاط المسيحي اليوم.

نقولها ثانية أن الله لا يحتاج إلى من يدافعون عنه فهو السرمدي الذي لا يدافع عنه. وهو يستخدم كثيراً من الألفاظ الحربية كما أعلنه الكتاب المقدس ليتحدث إلينا بمصطلحات نستطيع فهمها, ولكن من البديهي أنه لم يقصد لنا أبداً أن نتصور أن عرش الله في الأعالي واقع تحت الحصار وميخائيل وجنوده أو كائنات سماوية أخرى تقوم بالدفاع عنه حتى لا يطاح به. فإذا ما بلغ بنا سوء الفهم لهذه الدرجة استعصى علينا فهم أي شيء يعلمنا إياه الكتاب المقدس عن الله. فلا اليهودية ولا المسيحية توافق على أفكار صبيانية سخيفة كهذه. فإله يجب حمايته هو إله لا يستطيع مساعدتنا إلا إذا ساعده أحد. ويمكننا أن نتكل عليه فقط إذا ما انتصر في الحرب التي تدور رحاها سجالاً بين الصواب والخطأ. إن إلهاً كهذا لا يمكن أن يظفر باحترام أناس عقلاء، يمكنه فقط أن يثير شفقتهم عليه.

ولكي تكون في جانب الصواب يجب أن يفكر عن الله أفكاراً تليق به ومن الضروري جداً أن نطهر أفكارنا من كل فكر منحط عن الله, وأن يكون الله في أفكارنا كما هو في الكون الذي خلقه. فالديانة المسيحية تتعلق بالله والإنسان. وكل دعوى الإنسان الوحيدة لأن يكون مهماً تنحصر في كونه قد خلق على صورة الله, أما الإنسان في ذاته فلا شيء. والمرنم في المزامير وكذلك الأنبياء في الكتاب المقدس يشيرون في تهكم لاذع إلى الإنسان الضعيف الذي في أنفه نسمة حياة, الذي ينمو كالعشب في الصباح ثم يجز فييبس قبل غروب الشمس. والكتاب المقدس يعلمنا بكل جلاء وقوة أن الله قائم بذاته وأن الإنسان قد خلق لمجد الله. ومجد الله العلي هو أولاً في السماء كما سيكون كذلك الأرض.

من كل ما تقدم نستطيع أن نفهم لماذا يتحدث الكتاب المقدس كثيراً عن الأهمية الحيوية للإيمان وكيف يعتبر الكتاب عدم الإيمان كخطية مميتة. إن أي خليقة من خلائق الله لا يمكنها الاعتماد على نفسها. الله وحده هو الذي يعتمد على ذاته، وكل الخلائق تعتمد عليه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فعدم الإيمان هو فعلاً إيمان معكوس إذ معناه الاتكال على إنسان مائت دون الله الحي. فغير المؤمن ينكر كفاية الله في ذاته ويغتصب لنفسه صفات ليست له. وهذه الخطية المزدوجة تهين الله وتنتهي بتدمير نفس الإنسان.

لقد جاءنا الله في المسيح شفقة بنا ومحبة. هذا ما علمته الكنيسة منذ أيام الرسل وقد أثبت ذلك في عقيدة ظهور الابن السرمدي في الجسد وكان ظهور جلال اللاهوت العظيم تحت غلاف الطبيعة البشرية رحمة منه وحفاظاً على البشر، ولنذكر ما قاله لموسى على الجبل: "اذهب انحدر ... وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبطش بهم." وقال كذلك: "لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش."

ويبدو أن المسيحيين اليوم يعرفون المسيح حسب الجسد، فيحاولون أن يحصلوا على الشركة معه بتجريده من قداسته الآكلة وجلاله الذي لا يدنى منه، وهي الصفات التي حجبها عندما كان على الأرض ولكنه اتزر بها في كمال مجدها عند صعوده إلى يمين الآب فمسيح الديانة المسيحية الشائعة ذو ابتسامة باهتة وهالة من النور، فغدا يشار إليه بأنه المرتفع الذي يحب الناس، أو على الأقل بعض الناس، وهؤلاء الناس شاكرون وإن كانوا غير متأثرين بهذه المحبة. فإذا ما احتاجوه فإنه يحتاجهم كذلك.

ولا تطنن أن حقيقة كفاية الله في ذاته تشل النشاط المسيحي، بل هي تزيد من كل اجتهاد مقدس. وهذه الحقيقة، إلى جانب كونها توبيخاً لاتكال الإنسان على نفسه، ترفع من عقولنا، إذ نستوعبها من وجهة النظر الكتابية، حمل الفناء والموت الثقيل وتشجيعنا على حمل نير المسيح الهين وعلى إنفاق أنفسنا في عمل مدفوع بالروح القدس لمجد الله وخير الإنسان. والخبر المبارك هو أن الله الذي ليست به حاجة إلى أحد قد تنازل، بإرادته العليا ليعمل في أبنائه المطيعين وبهم.

وإذا ما بدا ذلك وكأنه تناقض في القول - فليكن إذن كذلك، فإن عناصر الحق المختلفة تبدو دائماً متضاربة، وأحياناً تتطلب منا أن نؤمن بما يبدو تناقضاً في الظاهر بينما نحن ننتظر الساعة التي فيها نعرف كما عرفنا. عند ذلك ينفجر الحق لامعاً في وحدته بعد أن كان منقسماً على ذاته، سيبدو واضحاً أن ما كان تناقضاً لم يكن كذلك في الحق نفسه بل في عقولنا التي أفسدتها الخطية.

وفي الوقت عينه يكمن كمالنا الداخلي في طاعتنا الحبيبة لوصايا المسيح وتعاليم رسله الموحي بها. "لأن الله هو العامل فيكم". فهو لا يحتاج أحداً، ولكن إذا ما توفر الإيمان فهو يعمل بأي واحد. هذه العبارة تحوي عبارتين، وتتطلب الحياة الروحية السليمة أن نقبل كلا العبارتين، بعد أن احتجبت العبارة الأولى عن إفهام الناس طوال جيل من الزمان، وأدى ذلك إلى ضرر روحي بليغ:

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يا نقع كل صلاح، كل بركة تفيض

منك. ولا يعرف امتلاؤك نقصاً

فماذا يمكن أن ينقصك الإله

ومع ذلك فأنت المكتفي في ذاتك

تطلب قلبي الذي لا قيمة له

هذا هو ما تطلبه وليس سواه

جوهان شفلرJohann Sheffler

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل السابع: سرمدية الله

أيها القديم الأيام: إن قلوبنا اليوم تقبل بسرور ما لا تستطيع عقولنا أن تفهمه كلياً، أعني سرمديتك. ألست أنت من الأزل أيها الرب الإلهي، يا قدوسي.

نعبدك أيها الآب السرمدي الذي ليس لعمرك نهاية، والابن، ابن المحبة الذي مخارجه منذ القديم، كما نؤمن بك ونعبدك أيها الروح السرمدي، يا من كنت قبل تأسيس العالم وأحببت في مجدٍ مساوٍ للآب والابن.

وسع يا رب رحاب نفوسنا وطهرها لتكون مسكناً لروحك يا من تفضل القلب المستقيم الطاهر على كل هيكل. آمين.

إن فكرة الأبدية تتخلل الكتاب المقدس كله كسلسلة من الجبال الشاهقة، وكثلوج كبيرة ظاهرة في الفكر العبري والمسيحي فإذا ما رفضنا فكرة الأبدية استحال علينا أن ننهج نهج الأنبياء والرسل في تفكيرهم، فلقد كانوا مملوءين من أحلام الأبدية.

وكلمة أبدية يقصد بها في الكتاب المقدس أحياناً طول البقاء ليس إلا "الآكام الدهرية" ولذلك ذهب البعض إلى أن فكرة الخلود لم تخطر على بال من كتبوا بالوحي بل إنما أدخلها العلماء اللاهوتيون في وقت لاحق. وهذا بلا شك خطأ جسيم خطير، وليس له كما اعتقد أي سند من المفكرين المخلصين، بل لقد لجأ إليه بعض المعلمين ليهربوا من عقيدة العقاب الأبدي- فهم يرفضون فكرة العقاب الأبدي، بتمامها خشية التناقض. وليست هذه هي المرة الوحيدة التي فيها يضحي بالحق لإخراسه حتى لا ينهض شاهداً ملموساً على خطأ ما-

والحق هو أنه لو أن الكتاب المقدس لم يشر إلى أن الله سرمدي بكل ما في الكلمة من معنى لكان علينا أن نستنتج سرمديته من صفاته الأخرى، ولو أن الكتاب المقدس لم يحتو على كلمة للسرمدية المطلقة لكان علينا أن نصوغ كلمة نعبر بها عن السرمدية، لأن هذه الفكرة مسلم بها، ومعترف بها ضمنياً في كل مكان من الكتاب المقدس. ففكرة السرمدية لملكوت الله هي كالكربون لملكوت الطبيعة، فكما أن الكربون موجود في كل شيء تقريباً، وكما أنه عنصر جوهري في كل ما هو حي يغذي بالنشاط كل نوع من أنواع الحياة، كذلك فكرة السرمدية ضرورية لتعطي لكل عقيدة مسيحية معنى. حقاً إنني لا أعرف عقيدة ما من قانون الإيمان المسيحي تستطيع أن تحتفظ بمعناها لو أننا جردناها من فكرة الخلود.

"من الأزل إلى الأبد أنت الله." هذا ما قاله موسى بالروح. أي بعبارة أخرى تماثلها تماماً:

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

"منذ ما لا بداية إلى ما لانهاية." إن العقل يتطلع إلى الوراء إلى حيث يختفي الماضي السحيق ثم يتطلع إلى الأمام إلى المستقبل حتى يتداعى الفكر والخيال من الإرهاق. والله في كلا النقطتين لم ينله شيء من أيهما.

إن الزمن مجرد بداءة الأشياء المخلوقة ولكن ذلك لا ينطبق على الله لأنه لا بداءة له. فكلمة "بدأ" هي كلمة زمنية ولا يمكن أن يكون لها معنى شخصي بالنسبة لله العلي العظيم الساكن الأبد:

ليس يستطيع دهر أن يجمع سنيه عليك

يا إلهنا العزيز فأنت بذاتك أبديتك.

فردريك و. فابير

وبما أن الله يسكن في أبدية حاضرة فلا ماضي ولا مستقبل عنده. وعندما يجيء ذكر كلمات تدل على الزمن في الكتاب المقدس فإنها تشير إلى زمننا نحن وليس إلى زمن الله. وعندما تصرخ الحيوانات الأربعة التي هي أمام العرش نهاراً وليلاً قائلة: "قدوس. قدوس. قدوس الرب الإله القادر على كل شيء الذي كان والكائن والذي يأتي." فإنها تتحدث عنه بلغة خلائقه بأزمانها الثلاثة المألوفة، وهذا حق وحسن لأن الله شاء بإرادته العلية أن يأخذ مكانه هكذا. ولكن لما كان الله غير مخلوق فهو لا يتناثر بتعاقب التغييرات التي نطلق عليها كلمة الزمن.

فالله ساكن الأبد ولكن الزمن يسكن في الله، فلقد عاش كل غدنا كما عاش كل أمسنا. ولعل المثل الذي ضربه سي. أس. لويس C.S.. Lewis يساعدنا على فهم ذلك، قال تصوروا صفحة من الورق لا نهاية لها: تلك هي الأبدية. فكما أن الخط المرسوم على تلك الصفحة يبدأ وينتهي على تلك الصفحة التي لا بداية ولا نهاية لها فكذلك الزمن بدأ في الله وسينتهي فيه.

أما أن الله يظهر عند بدء الزمن فأمر لا يصعب فهمه ولكن ظهوره عند بدء الزمن وعند انتهائه في وقت واحد فذلك ليس من السهل فهمه. فالزمن عندنا تتابع حوادث، فهو الطريق التي نفسر بها التغييرات المتتالية في الكون. والتغييرات لا تحدث كلها دفعة واحدة بل تتعاقب الواحدة بعد الأخرى. والعلاقة بين كلمتي "قبل" و "بعد" هي التي تعطينا فكرتنا عن الزمن. إننا ننتظر الشمس أن تجري من الشرق إلى الغرب، أو عقرب الساعة يدور حول مينا الساعة، أما الله فليس مضطراً إلى الانتظار هكذا. فكل ما هو عتيد أن يحدث قد حدث فعلاً بالنسبة له.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولذلك سيقول الله: "أنا الله وليس آخر... وليس مثلي. مخبر منذ البدء بالأخير". فهو يرى البداية والنهاية في وقت واحد. وكما يقول نيقولا أوف كوزا" :Nicolas of Coza إن اللانهائية التي هي الأبدية ذاتها تضم كل التعاقب. وكل ما يبدو لنا تعاقباً لم يكن قبل فكرة. الله التي هي الأبدية... ولذلك فلأنك الإله القدير على كل شيء فأنت تسكن داخل جدار الفردوس. ولكنك يا إلهي، المطلق، والسرمدي كائن عبر الحاضر والماضي ومن هناك تتكلم."

ولما صار موسى شيخاً مسناً جداً كتب المزمور الذي اقتبسنا منه عن مطلع هذا الفصل وفيه يتحدث عن سرمدية الله، وهي حقيقة لاهوتية ثابتة بالنسبة له ثبات جبل سينا وصلبة صلابته وهو الجبل الذي عرفه جيداً، وسرمدية الله تعني أمرين عمليين بالنسبة لموسى، فالله دائماً وإلى الأبد الموطن الوحيد لشعبه طول الأيام: "يا رب ملجأ كنت لنا في دور فدور". أما الأمر الثاني فليس كالأول في درجة تعزيته، فسرمدية الله طويلة طويلة أما أيامنا على الأرض فقصيرة قصيرة، فكيف إذن نثبت عمل أيدينا؟ كيف ننجو من التآكل والتفتت بفعل حوادث الزمان؟ إن المزمور مليء بالله، والله يسيطر عليه، وهكذا يتوسل موسى إليه بنبرات حزينة "إحصاء أيامنا هكذا علمنا فنؤتي قلب حكمة." ليت معرفة سرمديتك يا رب لا تضيع فيّ هباء.

ويجدر بنا نحن الذين نعيش في هذا العصر المحموم أن نتأمل في حياتنا وفي أيامنا كثيراً أمام وجه الله وعلى حافة الأبدية. لأننا مخلوقون للأبدية كما نحن بكل تأكيد مخلوقون للزمن، ويجب علينا كخلائق أدبيين مسؤولين أن نتعامل مع هذين كليهما. قال الجامعة: "اجعل الأبدية في قلبهم"، واعتقد أنه هنا يتحدث عن مجد الإنسان وعن تعاسته. فكون الإنسان مخلوقاً للأبدية ولكنه مضطر أن يحيا في نطاق الزمن فذلك مأساة هائلة مضجعة، فكل ما فينا يصرخ طالباً الحياة والخلود، ولكن كل ما حولنا يذكرنا بالموت والتغير. ولكن إن الله خلقنا من جادة الأبدية. فذلك مجد ونبوة معاً: مجد على ذمة التحقيق، ونبوة رهن التحقيق.

أرجو أنه ليس تكراراً مملاً أن أعود إلى ذلك الركن الهام من أركان التعليم اللاهوتي المسيحي، ألا وهو صورة الله في الإنسان فلقد طمست الخطية معالم الصورة الإلهية في الإنسان حتى لم يعد من السهل التعرف عليها، ولكن أليس لنا الحق في أن نقول أن علامة واحدة باقية ألا وهي رغبة الإنسان الملحة في الخلود كما قال تنيسون Tennyson في شعره المشهور:

إنك لن تتركنا في التراب يا الله

فلقد صنعت الإنسان لسبب لا يدريه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولكنه يعتقد أنه لم يخلق، لكي يموت

لأنك أنت الذي خلقته، وأنت عادل

كذلك كان تنيسون يفكر وتشاركه في تفكيره أعمق الغرائز للقلب البشري الطبيعي، فما زالت صورة الله القديمة تهمس في قلب كل إنسان برجاء أبدي بأنه سوف يخلد في مكان ما. إنه للآن لا يستطيع أن يفرح لأن النور الذي ينير كل إنسان والآتي إلى العالم يقض ضميره ويخيفه ببراهين عن ذنبه وجرائن عن الموت. وهكذا يقع بين مجرى الرحى: الرجاء من أعلى والخوف من تحت.

وهنا تبدو الرسالة المسيحية الحلوة المواتية "يسوع المسيح... أبطل الموت وأثار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل." هذا ما كتبه أعظم المسيحيين قبيل إعدامه. فسرمدية الله وفناؤنا يتضافران لإقناعنا بأن الإيمان بيسوع المسيح ليس أمراً اختيارياً، بل على كل إنسان أن يختار بين المسيح أو المأساة الأبدية. لقد جاء ربنا من السرمدية إلى الزمن لينقذ أخوته البشريين الذي أضلهم غباؤهم الأدبي وجعل منهم لا أغبياء في العالم فقط بل عبيداً للخطية والموت كذلك:

إن الحياة القصيرة نصيبنا هنا

وكذلك الحزن القصير والهم الذي لا يدوم طويلاً

أما الحياة التي لا نهاية لها

والحياة التي هي بلا وقوع فهناك

الله هناك ملكنا ونصيبنا

في ملء مجده

سنراه عندئذ إلى الأبد

ونعبده وجهاً لوجه.

برنارد أوف كلونيBernard of Cluny

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثامن: لا نهائية الله

أيها الآب السماوي أرنا مجدك، ولو من ملجأ نقرة الصخرة أو تحت حمى يدك الساترة. دعنا نعرفك كما أنت مهما كلفنا ذلك من فقدان الأصدقاء أو خسارة المتاع أو طول الأيام، حتى نعبدك كما يجب، باسم يسوع المسيح ربنا. آمين.

العالم شرير، والوقت قد تناهى، وقد فارق مجد الله الكنيسة كما ارتفعت السحابة النيّرة مرة عن باب الهيكل على مرأى من حزقيال النبي.

لقد ارتفع عنا حضور إله إبراهيم الملموس، ودنا إلينا إله لم يعرف آباؤنا. هذا الإله من عمل يدينا، ولأننا نحن عملنا. فنحن نفهمه، ولأننا صنعناه فهو لن يدهشنا ولن يحدق بنا أو يثير عجبنا أو يفوقنا.

ولقد أعلن رب المجد نفسه أحياناً كشمس تدفئ وتبارك، نعم وغالباً ما تدهش وتخيف وتعمي، قبل أن تشفي وتمنح البصر الأبدي وهذا الإله، إله آبائنا، يريد أن يكون إله ذريتهم، فعلينا فقط أن نعد له مسكن محبة وإيمان وتواضع، وعلينا أن نطلبه بلجاجة وعندئذٍ سيأتي ويعلن ذاته لنا.

هل نريد أن نصغي إلى كلمات رجل قدوس مفكر يحضننا ويناشدنا. فاسمع إذن كلمات انسلم وأصغ إليها: "قم الآن أيها الرجل الصغير! اهرب قليلاً من عملك. اختبي برهة من الأفكار المزعجة. إلقِ جانباً همومك وأحمالك الآن واترك أعمالك المتعبة. أعط مكاناً في حياتك لله بعض الوقت واسترح قليلاً فيه. ادخل إلى مخدع فكرك واطرد كل فكر إلا فكر الله وكل ما يساعدك في طلب الله. تكلم الآن يا كل قلبي، تكلم إلى الله وقل له أني أطلب وجهك يا رب. وجهك يا رب أطلب".

ومن بين كل ما يقال ونفكر به عن الله نجد أن أصعب شيء على الفهم هو لا نهائية الله، وحتى مجرد بذل أية محاولة لتفهمها يبدو أمراً متناقضاً، لأن تفكيراً كهذا يتطلب منا عملاً نعلم مسبقاً أن لا قبل لنا به. ومع ذلك فعلينا أن نحاول لأن الكتاب المقدس يعلمنا أن الله لا يستقصي ولا يحد، فإذا ما قبلنا صفاته الأخرى فلا بد أن نقبل هذه أيضاً.

ويجب ألا نتقاعس عن محاولة تفهم هذه بسبب ذعورة الطريق وعدم توفر المساعدات الآلية التي تعيننا على الصعود، فالمنظر من القمة أروع ما يكون والمسارفة لا تقطعها الأرجل بل القلب. فلنطلب إذن "تلك الرؤى الفكرية والتصاعد العقلي" التي يسمح بها الله لنا عالمين أن الرب كثيراً ما يهب الإبصار للعمى ويهمس في آذان الأطفال والرضع نفحات الحق التي لم تخطر على بال الحكماء والفهماء والآن يجب أن العمى يبصرون وأن الصم يسمعون. والآن يجب أن نتوقع أن نحصل على كنوز الظلمة وثروات الخفاء.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

واللانهائية معناها بالطبع انعدام الحدود ومن البديهي أن يتعذر على ما هو محدود أن يدرك ما لا حدود له. فأنا في هذا الفصل مضطر إلى الاعتراف بأن تفكيري تنقصه خطوة واحدة عن الوصول إلى ما أريد الكتابة عنه وأن القارئ بالضرورة تنقصه في تفكيره درجة واحدة عن الوصول إلى ما يريد أن يفهمه. يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء.

ولقد أعلنّا السبب في حيرتنا من قبل فنحن نحاول أن نتفهم طريقة للوجود غريبة علينا وتختلف تماماً عن كل ما عهدناه في عالم المادة، والمسافة، والزمن.

ويكتب نوفاشيان Novatian ما يلي: "وهنا، كما في كل تأملاتنا عن صفات الله وما هو عليه نخرج خارج نطاق ما تستطيعه اتهامنا، كما لا تستطيع الفصاحة البشرية أن تقدم قوة تتناسب مع عظمته تعالى. إننا إذ نتأمل في عظمته وجلاله وننطق بهما تخرس كل فصاحتنا بحق ويتضاءل كل مجهود عقلي لنا، لأن الله أعظم من العقل نفسه، وعظمته لا ترقى إليها أفهام البشر. فلو أننا استطعنا فهم عظمته لكان هو أقل من العقل البشري الذي استطاع أن يكوّن عنه فكرة. إنه أعظم من أن تعبّر عنه لغة أو تبيّنه عبارة. ولو أن عبارة استطاعت أن تبيّنه لكان أقل من الكلام البشري الذي استطاع بتلك العبارة أن يتفهم كنه الله ويوضحه. إن كل أفكارنا عن الله تقصر دونه، وأرقى كلماتنا ما هي إلا تفاهات إذا ما قيست به تعالى".

ومن المؤسف أن كلمة لا نهائي لم تستخدم دائماً في معناها بالضبط بل لقد جرى استخدامها كمرادف لكلمة وفير أو كثير، كأن نقول أن الرسام الفلاني يعتني برسم صورة عناية لا نهاية لها، أو أن مدرسة ما لا نهاية لصبرها على تلاميذها. إن المعنى الصحيح لهذه الكلمة لا يجوز على ما هو مخلوق، ولا عن أي شخص عدا الله. فإذا ما تناقشنا عن مسافة ما هي نهائية أو لا نهاية لها كان ذلك النقاش لعباً بالألفاظ. إن اللانهائية هي من صفات واحد فقط هو الله ولا سواه.

فعندما نقول أن الله لا نهائي فمعنى ذلك أن لا حدّ له وهنا نقول مرة أخرى أننا يجب ألا نخلط هذا بقولنا أن ثروة فلان لا تحصى أي لا تحد أو أن نشاط فلان لا حد له فهذه كلها أمثلة على إساءة استعمال الكلمات. فالثروة والنشاط لا يمكن أن يكونا بلا حدود اللهم إلا إذا كنا نتكلم عن غنى الله وقدرته تعالى.

وكذلك فعندما نقول أن الله لا نهائي فنحن نقصد أنه لا يمكن أن يقاس بمقياس. فالقياس تعبير الأشياء المخلوقة عن نفسها، فهو يوضح الحدود، والنقائص ولا يمكن أن ينطبق ذلك على العزة الإلهية. والوزن يقيس قوة جاذبية الأرض للأجسام المادية كما تقيس المسافات الأبعاد بين الأجسام، والطول يعني الامتداد في المسافات، كما أن هناك مقاييس معروفة للسوائل والقوة، والصوت، والصنوبر، وكذلك هناك أرقام لقياس الأعداد. ونحن كذلك

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

نحاول أن نقيس الخواص المعنوية فنقول مثلاً فلان له إيمان قليل وذكاء عالٍ أو قليل ومواهب وفيرة أو يسيرة.

أفليس واضحاً أن ذلك لا يمكن تطبيقه على الله. إن هذه طرقنا في نظرتنا إلى أعمال يديه وليس إليه هو. فهو متعالٍ عن هذه كلها، وبعيد عنها، وفوقها. ومفاهيمنا في القياسات تحتضن الجبال والناس والذرّة والنجوم والجاذبية والطاقة والأعداد والسرعة لكنها لن تحتضن الله. فلا يمكن أن نتكلم عن الله بلغة القياس أو الكم أو الحجم أو الوزن، فهذه كلها تتحدث عن درجات وليس في الله درجات وتفاوت. فكل ما هو الله ليس فيه ازدياد أو نمو أو اضطراد، إذ ليس في الله زيادة أو نقصان أو كبير أو صغير، فهو الله بذاته لا يكيّفه فكر أو كلمات. هو الله وكفى.

ففي اللجّة الإلهية الرهيبة قد تكمن صفات لا نعرف نحن عنها شيئاً والتي قد لا نعرف لها معنى كما لا تعني صفات الرحمة والنعمة أي معنى شخصي للساروفيم والكروبيم. فهذه الكائنات المقدسة قد تعرف هذه الصفات في الله ولكنها لا تحس بها لأنها لم تخطئ ولذلك لا تطلب رحمة الله ونعمته. لذلك قد تكون هناك، وأنا اعتقد أنه لا بد أن تكون هناك، مظاهر أخرى عن جوهر إله لم يعلنها الله حتى لأولاده المفديين الذين أنارهم الروح. هذه النواحي الخفية من طبيعة الله لا تخص إلا علاقته بذاته، وهي كالجانب الآخر للقمر الذي نعلم بوجوده ولكننا لم نستكشفه بعد ولذلك لا يعلم سكان البسيطة له معنى مباشراً. وليس من سبب يدعونا إلى اكتشاف ما لم يعلن لنا، ويكفينا أن نعلم أن الله هو الله:

أنت تملأ ذاتك إلى الأبد

بلهيب ذاتي مشتعل

وأنت دائماً تستقطر في ذاتك

مسحات لا نعرف لها اسماً وبدون عبادة تقدمها خلائقك

وبدون حجاب على ملامحك

أنت أنت الله

فردريك و. فابير

ولكن لا نهائية الله لنا. قد أعلنت لنا لتنفعنا إلى الأبد ولكن ما هو معناها لنا أكثر من أننا نقف متعجبين إذ نفكر فيها؟ إنها تعني الكثير على أي حال، وتعني أكثر كلما ازددنا معرفة بأنفسنا وبالله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولما كانت طبيعة الله لا نهائية فإن كل ما يصدر عنها هو لا نهائي أيضاً. فنحن الخلائق المساكين نشعر بالفشل كثيراً بالنسبة لما يحيط بنا من حدود في الخارج والداخل. فأيام حياتنا قليلة وهي تمضي أسرع من الوشيعة. والحياة أشبه بتمرين قصير محموم على معزوفة تموت قبل أن نعزفها. وعندما يبدو أننا قد أتقنا دوراً نجد أنفسنا مجبرين على طرح آلاتنا جانباً. وليس لدينا متسع من الوقت لنفكر، ولنصبح ما نريد أن نكونه، وللقيام بما يستطيع كياننا أن يقوم به.

ويا له من شبع كامل لنا عندما نتحول عن حدودنا إلى الله الذي ليست له حدود، فسنوه لن تغني، والزمن عنده ليس فقط لا ينتهي بل هو باق، وكل الذين هم في المسيح يتمتعون معه بكل غنى الزمن الذي لا ينتهي والسنين التي لا تنقضي. إن الله لا يتعجل، فليست هناك مواعيد أخيرة يتعجل العمل قبل حلولها. إن مجرد معرفة هذه الأمور تهدئ من روعنا وتريح أعصابنا - فبالنسبة للذين هم خارج المسيح فإن الزمن وحش ضارٍ وأما بالنسبة لبناء الخليقة الجديدة فالزمن إنما يربض ويهرّ ويلعن كفيه، لأن عدو الإنسان العتيق قد أصبح صديق الجديد، والنجوم في مداراتها تدافع عن الشخص الذي يسر الله بأن يكرمه. هذا نتعلمه من اللانهائية الإلهية.

زد على ذلك أن عطايا الله في الطبيعة لها حدودها ولها نهايتها لأنها مخلوقة، وأما عطية الحياة الأبدية في المسيح يسوع فهي كالله لا تعرف حداً، فالمؤمن المسيحي له حياة الله نفسه ويشترك معه في لا نهائيته. ففي الله حياة كافية للجميع وزمن كافٍ للتمتع بها. كل ما نحصل عليه من حياة طبيعية يجري من الولادة إلى الممات وينتهي، ولكن حياة الله لا تزول ولا تنتهي، وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.

ورحمة الله أيضاً ليس لها حد، والشخص الذي ذاق الألم المبرح من وخزات الشعور بالذنب يعرف أن ذلك ليس مجرد كلام يقال "حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً". وكثرة الخطية هو ما يروع العالم، أما ازدياد النعمة فهو رجاء البشرية. ومهما كثرت الخطية فإن لها حدوداً لأنها صادرة عن عقول وقلوب لها حدود. أما قوله "ازدادت ... جداً" فيضع أمامنا لا نهائية. فقدرة الله غير المحدودة على الشفاء هي على النقيض من مرضنا البشري العميق.

والشهادة المسيحية عبر العصور هي أنه "هكذا أحب الله العالم." وبقي أن نرى هذه المحبة في ضوء لا نهائية الله. فمحبته لا تقاس فهي تعلو على كل قياس، وهي لا تعرف حدوداً لأنها ليست شيئاً يحد بل هي وجه من طبيعة الله الجوهرية. فمحبة الله هي أمر في كنه الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولأن الله غير محدود فمحبته تستطيع أن تسع العالم المخلوق كله وتسع معه عشرات ألوف العشرات الألوف من العوالم نظيره.

هذا، هذا هو الإله الذي نعبده

صديقنا الأمين الذي لا يتغير

الذي محبته عظيمة كقوته

ولا تعرف قياساً أو نهاية.إنه يسوع الأول والآخر

الذي سيرشدنا روحه بأمان إلى منزلنا

وسوف نحمده على كل ما مضى

ونتكل عليه لكل ما هو آت.

جوزيف هارتJoseph Hart

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل التاسع: عدم تغير الله

أيها المسيح ربنا ملجأ كنت لنا في دور فدور، إننا نركض إليك للاحتماء بك كما يركض الوبر إلى الصخور، ونطير إليك طلباً للسلام كما تطير الطيور في سفراتها. ما أكثر التغيير والفرص في عالمنا الصغير عالم الطبيعة والبشر، ولكننا لا نجد عندك تغييراً ولا ظل دوران. نحن نطمئن فيك بلا خوف أو شك ونواجه الغد بلا همّ أو كرب. آمين.

وعدم تغيير الله صفة من صفات الله لا يصعب فهمها. ولكن لكي نفهمها جيداً علينا أن ندرب أنفسنا على تنسيق الأفكار العادية التي نفكر بها عن الأشياء المخلوقة لنميزها عن الأفكار النادرة التي تصادفنا عندما نحاول أن نفهم ما يمكن فهمه عن الله.

وعندما نقول أن الله لا يتغير فذلك يعني أنه لا يختلف عن نفسه أبداً. فليس في الكتاب المقدس فكرة عن إله ينمو ويتقدم. ومن المستحيل علي أن أفكر في إله يختلف عن نفسه في شيء، وهاك السبب في ذلك:

إذا ما تغير كائن أدبي فإن ذلك التغيير يحدث في أحد اتجاهات ثلاثة. يجب أن يسير من أحسن إلى أردأ أو من أردأ إلى أحسن، أو أ ن يكون التغيير داخل نفسه إذا ما سلمنا بأن الناحية الأدبية تظل بلا تغيير، أي أنه مثلاً يصبح ناضجاً بعد أن كان غير ناضج أو أن يتحول من رتبة إلى أخرى ويجب ألا يغرب عن البال أن الله لا يمكن أن يتجه في أيٍ من هذه الاتجاهات. فكماله الأبدي لا يفسح أي مجال لاحتمال كهذا.

فالله لا يمكن أن يتغير للأحسن. وبما أنه كلي القداسة لذلك لم يكن في أي وقت مضى أقل قداسة منه الآن أو منه في أي وقت مضى. وكذلك فالله لا يمكن أن يتغير للأردأ إذ من المستحيل أن يحدث فساد في طبيعة الله الكلية القداسة. بل اعتقد أنه من المستحيل أن نفكر في شيء كهذا، ولنحاول الآن أن نعمل هذا، وموضوع تفكيرنا ليس هو الله بل هو شيء آخر، هو شخص آخر سواه. فالذي نفكر فيه قد يكون مخلوقاً رهيباً ولكن بما أنه مخلوق فلا يمكن إذن أن يكون هو الخالق الكائن بذاته.

ولما كان من غير الممكن أن يكون هناك تغيير أو تبديل في سجايا الله الأدبية لذلك كان هذا أيضاً غير ممكن بالنسبة لجوهر الله، فكنه الله فريد بكل ما في هذه الكلمة من معنى صحيح، أي أن كنه الله يختلف تماماً عن كل الكائنات. ولقد رأينا كيف يختلف الله عن خلائقه في أنه كائن بذاته، ومكتف في ذاته، وسرمدي. ولهذه الصفات فإن الله هو الله وليس هو كائناً آخر –فإن من يتعرض إلى أقل درجة من التغيير لا يمكن أن يكون كائناً بذاته أو مكتفياً في ذاته أو سرمدياً، وبالتالي لا يمكن له أن يكون الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فالكائن القابل للتغيير والتبديل هو الكائن المكون من أجزاء لأن التغيير في أساسه هو تبدل في العلاقة بين أجزاء الجسم الواحد، أو دخول عنصر غريب على المركب الأصلي، وبما أن الله كائن في ذاته لذلك فهو غير مركب، وليست به أجزاء فتتغير وبما أنه مكتف في ذاته لذلك لا يمكن أن يدخل عليه شيء من خارج.

ويقول انسلم: "كل ما هو مركب من أجزاء ليس منفرداً بالكلية، بل هو على نوع ما جمع ومختلف في ذاته، وقابل للانحلال نظرياً أو عملياً. ولكنك منزه عن كل هذه الأشياء، وليس من يعلو عليك. ولذلك فليس لك أجزاء يا رب، كما أنك لست أكثر من واحد، بل أنت حقاً واحد متحد في ذلك ولست مخالفاً لذاتك في شيء. أنت الوحدة عينها لا يمكن أن تتجزأ بأي معنى كان".

فالله كل الله موجود سرمدي، والله كل الله السرمدي الكائن والذي كان، أبدي لا ينتهي." ولا يمكن أن يتغير أو يتبدل أي شيء قاله الله عن نفسه ولن ينقض أي شيء مما قاله الأنبياء والرسل عن الله. فعدم تغيره يضمن ذلك.

وعدم تغير الله يبدو في كمال كماله إذا ما قيس بتغير الإنسان، فالتغير مستحيل في الله، وأما في الإنسان فالتغيير لا مناص منه، والإنسان ودنياه ليسا بثابتين بل هما في تغيير مستمر، فكل إنسان يظهر قليلاً على مسرح الوجود ليضحك ويبكي، ويعمل ويلعب ثم يمضي ليترك مجالاً للذين سيأتون بعده في تلك الحلقة التي لا تنتهي.

ولقد وجد بعض الشعراء في سنّة التغير هذه لذة مَرَضية فوضعوا أناشيدهم بنغمة حزينة في أغنية التغير المستمر. ومن بين هؤلاء عمر الخيام الذي تغنى في مزاح وشجن بأنشودة التغير والتبدل، هذين المرضين التوأمين اللذين يدبان في جسم البشرية، فقال مخاطباً الخزّاف: "لا تضرب قطعة الطين هذه بعنف فقد يكون هذا الذي ترفع الكلفة بينك وبينه هو تراب جدك". وهو يذكر الشارب قائلاً: "عندما ترفع الكأس لتشرب الخمر الحمراء فقد تكون بهذا تقبل شفتي حسناء ماتت منذ زمن بعيد".

إن نغمة الحزن الجميلة هذه التي يعبر عنها في مزاح رقيق تضفي على رباعياته جمالاً أخاذاً، ولكن مهما كان جمالها فالشعر الطويل كله سقيم، سقيم إلى الموت، كالعصفور الذي يسمره الثعبان الذي سوف يلتهمه، فالشاعر يخلبه العدو الذي يدمره تدميراً كما يدمر كل الناس، وكل جيل من البشر.

وكذلك الذين دونوا الكتاب المقدس بالوحي قد تعرضوا لتغير الإنسان وتبدله، ولكنهم أناس أصحاء وفي كلماتهم قوة صحيحة فقد عرفوا الدواء لذلك الداء العضال. فكتبوا أن الله لا يتغير، وقانون التغير يسري على عالم ساقط، وأما الله فلا تغيير عنده وكل الذين يؤمنون

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يجدون فيه استمراراً أبدياً. وفي الوقت عينه يعمل التغير والتبدل لصالح أبناء الملكوت وليس ضدهم. فالتغير الذي يعمل فيهم يتم بالروح الساكن فيهم كما يقول الرسول بولس: "نحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح."

وفي عالم كهذا سرى فيه التغيير والفساد لا يمكن لإنسان أن يشعر فيه بالسعادة ولا حتى الإنسان المؤمن، وهو بالغريزة يسعى وراء ما لا يتغير، وهو يحزن لفراق المألوف من الأشياء:

يا رب: إن قلبي سقيم

سقيم من هذا التغير المستمر

والحياة تسرع سرعة متعبة

في سباقها الذي لا يهدأ وهدفها المتغير

وليس للتغير شبه فيك

وليس له صدى في أبديتك الصامتة

فريدريك و. فايبر

إن هذه الكلمات التي نطق بها فايبر يتجاوب صداها في كل قلب ولكن بالرغم من أننا ننعي عدم الثبات في كل ما هو أرضي وفي عالم ساقط كهذا، فإن مجرد إمكانية التغير كنز ذهبي، وهي عطية من الله لا تقدر بثمن حتى أننا يجب أن نشكر الله لأجلها شكراً مستمراً. فكل إمكانية الفداء لكل البشر تكمن في إمكانية التبديل. فالانتقال من شخص ما إلى شخص آخر هو جوهر التوبة. فالكذاب يصبح صدوقاً، واللص يضحي شريفاً، والفاجر يغدو طاهراً، والمتكبر يصير متواضعاً. وهكذا يتغير نسيج الحياة الأدبية كله، فالأفكار والرغبات والعواطف تتغير وتتسامى، والإنسان ليس بعد كما كان قبلاً، بل أن التغيير الذي حدث تغيير جذري لدرجة أن الرسول يلقب الإنسان كما كان أولاً "بالإنسان العتيق" ويلقب الإنسان بحاله الراهنة الإنسان "الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه".

على أن التغيير أعمق وأبعد من أن يعلنه أي عمل خارجي، إذ هو ينطوي على قبول حياة من طبيعة أخرى أعلى. فالإنسان العتيق في أرقى مظاهره لا يملك سوى طبيعة آدم، أما الإنسان الجديد فله طبيعة الله، وليس هذا مجرد كلمات تقال بل هو صحيح حرفياً. وعندما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يسكب الله في روح الإنسان الحياة الأبدية يصبح هذا الإنسان عضواً في مستوى وجودي جديد أعلى وأرقى.

وفي تتميمه لعمله الفدائي نرى أن الله الذي لا يتغير يستخدم التغيير استخداماً تاماً، وبتغييرات متتابعة يصل في النهاية إلى الدوام والاستمرار. ويتضح هذا من الرسالة إلى العبرانيين فقوله: "ينزع الأول لكي يثبت الثاني." هو عبارة عن تلخيص لتلك الرسالة الممتازة. فالعهد القديم، الذي كان شيئاً مؤقتاً، قد أُبطل، وحل محله العهد الجديد الأبدي. وفقد دم التيوس والعجول أهميته لما سفك دم حمل الفصح العظيم. فقد كان الناموس، والمذبح، والكهنوت أشياء مؤقتة قابلة للتغيير، أما الآن فناموس الله، الناموس الأبدي، منقوش إلى الأبد على المادة الحساسة الحية التي تتكون منها نفس الإنسان ولم يعد هناك بقاء للقدس القديم، أما القدس الجديد فأبدى في السموات وفيه لابن الله كهنوت أبدي لا يزول.

وهنا نرى أن الله يستخدم التغيير كخادم وديع ليبارك أهل بيته المفديين، أما الله نفسه فخارج عن نطاق التبديل ولا يتأثر بأي تغيير يحدث في الكون:

وكل الأشياء التي تغير تعلن

إن الله إلى الأبد هو هو.

تشارلز وسلي

ثم أن سؤال المنفعة أو الفائدة يبرز من جديد:

"ما الفائدة التي تعود علي من معرفتي بأن الله لا يتغير. أفليس الموضوع كله مجرد افتراض لفلسفة عقلية، قد تعطي بعض الشبع لأشخاص من عقلية معينة ولكن ليست لها قيمة ما لأناس عمليين".

إذا كنا نقصد بقولنا "أناس عمليين" الأشخاص غير المؤمنين المستغرقين في أعمالهم الدنيوية والغافلين عن مطاليب المسيح وعن صالح نفوسهم وأمور العالم الآتي، فإن كتاباً كهذا لا يعني شيئاً بالنسبة لهم على الإطلاق، ولا أي كتاب آخر، مع الأسف، يعنى جدياً بالأمور الدينية. ومع أن هؤلاء الناس قد يكونون أكثرية إلا أنهم ليسوا على أية حال هم كل الناس، فلا يزال هناك السبع آلاف الذين لم يحنوا ركبة لبعل. هؤلاء يؤمنون أنهم خلقوا لكي يعبدوا الله ولكي يتمتعوا بحضرته إلى الأبد، وهم تواقون إلى أن يتعلموا قدر ما يستطيعون عن الله الذي سيقضون معه الأبدية. وأليس هو مصدر قوة مفرحة أن تعرف أن الله الذي معه أمرنا لا يتغير وأن موقفه تعالى منا اليوم هو عينه كما كان في الأزل وكما سيكون إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الأبد؟ بينما الناس من هذا العالم ينسونا ويغيرون موقفهم حيالنا حسبما تمليه عليه مصالحهم الشخصية، ويغيرون آرائهم فينا لأتفه الأسباب.

يا له من سلام عظيم لقلب المسيحي أن يعرف أن أباه السماوي لا يختلف أبداً عن ذاته تعالى. وإذ نقترب إليه في أي وقت من الأوقات لا حاجة بنا إلى التساؤل عما إذا كنا سنجده مستعداً لأن يقبلنا أم لا. إنه دائماً مستعد لأن يقبلنا في بؤسنا وحاجتنا كما في محبتنا وإيماننا. وليست له ساعات عمل وساعات راحة لا يقابل فيها أحداً، كما أنه لا يغير رأيه عن شيء ما. وهو اليوم وفي هذه اللحظة يشعر نحو خلائقه، نحو الأطفال، والمرضى، والساقطين، والخطاة، تماماً كما كان يشعر نحوهم عندما أرسل ابنه الوحيد إلى العالم ليموت عن الجنس البشري.

إن الله لا يتغير في أحواله ولا تبرد محبته ولا تنطفئ حماسته. وموقفه حيال الخطية الآن هو هو كما كان عندما طرد الإنسان الخاطئ من جنة عدن، وموقفه حيال الخاطئ هو هو كما كان عندما فتح ذراعيه وقال: "تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم."

فالله لا يساوم ولا حاجة به لأن يلاطف. ولا يمكن أن يقنع لكي يغير كلمته ولا يؤثر عليه كي يستجيب صلاة أنانية. وفي كل محاولاتنا نجد الله ونرضيه ونتحدث إليه يجب علينا أن نذكر دائماً أن كل تغيير يجب أن يكون من جانبنا. "أنا الرب لا أتغير". وعلينا أن نقبل شروطه الصريحة، وأن نجعل حياتنا وفق إرادته التي أعلنها لنا وعندئذٍ نجد أن قوته غير المحدودة تعمل معنا بالطريقة المعلنة في كتاب الحق بإنجيله المبارك:

يا مصدر الوجود: يا منبع الصلاح

أنت تبقى بلا تغير ولا تبدل

وليس هناك ظل تغيير

يحجب أمجاد ملكك

تذوب الأرض وكل قواتها

إذا ما أراد الخالق العظيم لها ذلك

أما أنت فإنك أنت أنت إلى الأبد

"اهيه" دائماً وأبداً.

من مجموعة ووكر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل العاشر: علم الله بكل شيء

يا رب أنت تعلم كل شيء. أنت تعرف جلوسي وقيامي وتعرف كل طرقي ولست بحاجة أن أخبرك عن أي شيء، وعبثاً أحاول أن أخفي عنك شيئاً. وأنا أمام معرفتك الكاملة كطفل صغير ساذج. ساعدني يا رب حتى أطرح عني همومي لأنك تعرف طريقي التي أسلك فيها، وعندما تصفيني أخرج كالذهب. آمين.

إننا بقولنا أن الله يعرف كل شيء نعني أن معرفته معرفة كاملة وليس بحاجة إلى أن يتعلم شيئاً. بل وأكثر من ذلك، إننا نعلم أنه ما تعلم شيئاً من أحد ولا يمكن أن يتعلم من أحد.

ويحدثنا الكتاب المقدس أن الله لم يعلّمه أحد "من قاس روح الرب ومن مشيره يعلّمه. من استشاره فأفهمه وعلّمه في طريق الحق وعلّمه معرفة وعرفه سبيل الفهم." "لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً." هذه الأسئلة البليغة التي سألها النبي أشعياء والرسول بولس تعلن أن الله لم يتعلم قط من أحد. فلو أن الله في أي وقت من الأوقات وبأية صورة من الصور قد قبل في ذهنه أي علم لم يكن له من قبل، منذ الأزل، لكان غير كامل، وكان أقل من ذاته. فالفكرة عن إله عليه أن يجلس عند قدمي معلم، حتى ولو كان ذلك المعلم ملائكة أو ملاكاً، إنما هي فكرة لا تنطبق على الله العلي خالق السماء والأرض.

وطريقتنا هذه السلبية في معالجة موضوع علم الله بكل شيء لها، على ما أعتقد، ما يبررها في هذه المناسبة. فلما كانت معرفتنا الذهنية عن الله شحيحة وغامضة فإننا نستطيع أحياناً أن ننتفع كثيراً في محاولتنا تفهم كنه الله عن طريق التفكير فيما ليس هو من كنهه. ولقد اضطررنا اضطراراً في تأملنا في صفات الله حتى الآن إلى استعمال صيغة النفي بكثرة. فرأينا أن الله ليس له منشأ، وليست له بداءة، وليس بحاجة إلى معاونين، وليس خاضعاً للتغير، وليست له حدود في جوهره ويستخدم كاتبو الكتاب المقدس بالوحي هذه الطريقة فيرون الناس كنه الله عن طريق إعلامهم ما هو مخالف لكنه الله. فأشعياء يصرخ ويقول: "أما عرفت أم لم تسمع. إله الدهر خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا." وهذه العبارة المختصرة التي قالها الله "أنا الرب. لا أتغير" تحدثنا الكثير الكثير عن معرفة الله بكل شيء أكثر مما نقرأه في أطروحة ذات عشرة آلاف كلمة، لو إننا سلمنا جدلاً بأن كل صيغ النفي قد استبعدت. ويحدثنا بولس الرسول عن صدق الله السرمدي مستعملاً صيغة النفي فيقول "الله المنزه عن الكذب (أي أن الله لا يكذب)." وعندما أكد الملاك رسالته فقال "لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله." فهو يستعمل صيغتين للنفي لكي يكون الإثبات مؤكداً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أما أن الله عالم بكل شيء فليس أمراً يعلّمه الكتاب المقدس فحسب بل يجب أن نستنتجه أيضاً من كل ما نتعلمه عن الله. فالله يعرف ذاته معرفة كاملة ولما كان هو مصدر كل شيء وأصل كل شيء فهو بالتالي يعرف كل ما يُعرف، وهو يعرف معرفة فورية وكاملة الكمال، وتشمل كل تفصيل عن كل ما هو كائن وما كان في أي مكان في الوجود وفي أي وقت مضى أو هو في ذمة المستقبل في العصور التي لم تولد بعد.

فالله عالم بكل شيء وبكل الأشياء معرفة فورية وبدون جهد، وهو عالم بكل فكر وبكل الفكر، وبكل روح وبكل الأرواح، وبكل كائن وبكل الكائنات وبكل الخليقة وبكل المخلوقات، وبكل تجمع وبكل التجمعات، وبكل الناموس وبكل النواميس، وبكل النسب، وكل العلل، وكل الأفكار، وكل الأسرار، وكل الألغاز، وكل المشاعر، وكل الرغبات، وبكل سر لم يعلن، وكل العروش والسلاطين، وكل الشخصيات، وكل ما هو منظور وغير منظور في السماء، وعلى الأرض، والحركة، والفضاء، والزمن، والحياة، والموت، والخير، والشر، والسماء، وجهنم.

وبما أن الله يعرف كل شيء معرفة كاملة فهو بالتالي لا يعرف أمراً أكثر مما يعرف أمراً آخر بل هو يعرف كل شيء معرفة كاملة متساوية. فهو لا يكتشف شيئاً أبداً، ولا تأخذه دهشة ولا عجب، ولا استغراب لأمر ما، كما أنه لا يطلب معرفة أي شيء ولا يسأل سؤالاً (إلا عندما يجذب الناس لخيرهم وصالحهم).

فالله قائم بذاته ومتضمن لذاته ويعلم علماً شاملاً كاملاً ما لا يستطيع أي مخلوق أن يعلمه –أي ذاته- "أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله". فغير المحدود هو وحده الذي يعرف غير المحدود.

ونرى في علم الله لكل شيء رهبة اللاهوت وجلاله الواحد مقابل الآخر. فكون الله يعلم كل شخص علماً شاملاً كاملاً أمر قد يدعو إلى الخوف والفزع ذلك الشخص الذي يحاول إخفاء شيء ما أو خطية لم يقلع عنها، أو جريمة اقترفها ضد إنسان ما أو ضد الله. والنفس التعسة على حق في ارتعادها لعلمها أن الله يعرف بطلان كل حجة وهو لا يقبل الأعذار التي تحاول النفس أن تبرر بها التصرف الخاطئ لأنه تعالى يعلم علم اليقين السبب الحقيقي وراء هذا التصرف – "قد جعلت آثامنا أمامك. خفياتنا في ضوء وجهك." يا له من أمر مخيف أن نرى أبناء آدم يحاولون الاختباء وراء أشجار جنة أخرى. ولكن أين يختبئون يا ترى؟ "أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب... فقلت أنها الظلمة تخشاني فالليل يضيء حولي، الظلمة أيضاً لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضيء. كالظلمة هكذا النور".

أما نحن الذين لجأنا لنمسك بالرجاء الموضوع أمامنا في الإنجيل فما أحلى أن نعرف أن أبانا السماوي يعلمنا علماً كاملاً. فليس من مشتكٍ يستطيع أن يشتكي علينا ولا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

عدو يستطيع أن يلصق بنا تهمة، ولا شبح من طيات النسيان يستطيع أن يخرج من خزانة مخفاة ليفاجئنا ويشهر بماضينا. ولا أي ضعف غير منتظر في سلوكنا يمكن أن ينكشف ليبعد الله عنا لأن الله سبق فعرفنا معرفة كاملة قبل أن عرفناه، ودعانا لنفسه مع علمه الكامل بكل ما ينهض ضدنا " فإن الجبال تزول والأركام تتزعزع أما إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب".

فأبونا الذي في السموات يعرف جبلتنا ويذكر إننا تراب نحن. وهو يعلم خداعنا الذي ولدنا به، وقد اهتم بأمر خلاصنا لأجل خاطره (اش ٤٨:٨-١١). وعندما جال ابنه الوحيد فيما بيننا أحسّ بآلامنا في أشد قسوتها. ومعرفته بآلامنا وشدائدنا هي أكثر من معرفة نظرية، فهي معرفة شخصية، حميمة، رحيمة. ومهما أصابنا فإن الله يعرفه ويعتني بنا كما لا يقدر إنسان أن يعتني بنا:

إنه يمنحنا فرحه

إنه يصير طفلاً صغيراً

إنه يصير إنسان أوجاعٍ

إنه يشعر بالحزن أيضاً.

لا تظنّن أنك تتنهد مرة واحدة

دون أن يكون جابلك إلى جانبك

لا تظنّن أنك تسكب دمعة واحدة

دون أن يكون جابلك إلى قربك.

آه، إنه يمنحنا فرحه

لكي يزيل به أحزاننا

حتى يوّلي حزننا ويهرب عنا

إنه يجلس إلى جانبنا متألماً.

وليم بلايكWilliam Blake

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الحادي عشر: حكمة الله

أيها المسيح، يا من تجربت في كل شيء نظيرنا، ما عدا الخطية، قوّنا لكي نغلب الرغبة في أن نصير حكماء، وفي أن نشتهر بالحكمة عند أولئك الجهلاء نظيرنا. إننا نتحول عن حكمتنا وكذلك عن جهلنا لكي نهرب إليك، يا من أنت حكمة الله وقوّة الله، آمين.

في هذه العجالة التي نتأمل فيها عن حكمة الله نبتدئ بالإيمان بالله –وكما هي عادتنا سوف لا نحاول أن نفهم لكي نؤمن، ولكننا نؤمن حتى نفهم. ولذلك سوف لا نحتاج إلى برهان على حكمة الله، فإن الذهن غير المؤمن سوف لا يقتنع بأي برهان، وكما أن القلب العابد لن يحتاج برهاناً.

ولقد صرخ دانيال قائلاً: "ليكن اسم الله مباركاً من الأزل وإلى الأبد لأن له الحكمة والجبروت... يعطي الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهماً. وهو يكشف العمائق والأسرار. يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور." وهذا ما يوافق عليه الشخص المؤمن كما يوافق على تسبحة الملائكة كذلك: "البركة والمجد والحكمة والشكر والكرامة والقدرة والقوة لإلهنا إلى أبد الآبدين." إن شخصاً كهذا لا يمكن أن يفكر أن الله يقيم برهاناً على حكمته وقدرته، أفلا يكفي أنه الله؟

وعندما يقول علم اللاهوت المسيحي أن الله حكيم فإن المعنى أوسع مما يقول، فهذا العلم يحاول أن يجعل كلمة ضعيفة تحمل معنى واسعاً لا يحده عقل، يهدد بتمزيق تلك الكلمة وسحقها تحت ثقل تلك الفكرة. "لفهمه لا إحصاء" كما يقول المرنم. فعلم اللاهوت هنا يحاول أن يفسر اللانهائية وليس ما هو دون اللانهائية.

وبما أن كلمة "لا نهائية" كلمة تصف ما هو فريد في نوعه، فلذلك ليس لها مرادف. فنحن لا نقول "أكثر لا نهائية" أو "أبدي جداً" بل نحن نقف صامتين أمام اللانهائية.

وهناك بلا شك حكمة خلقها الله ومنحها لمخلوقاته حسبما يتطلب صالحهم. ولكن حكمة أي مخلوق، أو قل حكمة المخلوقات جميعها إذا ما قيست بحكمة الله غير المحدودة فإنها تبدو كلا شيء. ولذلك فإن الرسول صحيح تماماً عندما يشير إلى الله بالقول "الحكيم وحده". أي أن الله حكيم ذاته، وما حكمة البشر البراقة وحكمة الملائكة إلا انعكاساً لذلك البهاء غير المخلوق الذي يفيض من عرش العظمة في السموات.

وحقيقة حكمة الله غير المحدودة هي أساس كل حق. وهي من المعلومات الأساسية في الإيمان اللازمة لسلامة كل إيمان آخر عن الله. وطبيعي أن الله لا يتأثر بأفكارنا عنه، فهو ما هو بغض النظر عن خلائقه. ولكن سلامة تفكيرنا الأخلاقي يتطلب أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

تنسب إلى خالق الكون وحامله حكمة بالغة الجمال. فإذا ما رفضنا ذلك كان ذاك إنكاراً للشيء الذي يميزنا عن الحيوانات.

وعندما تشير الحكمة إلى الله وإلى الناس الأبرار في الكتاب المقدس فإنها تتضمن معنى أخلاقياً قوياً، فهي طاهرة ومحبة وصالحة. أما الحكمة التي هي مجرد فطنة فقط تنتسب غالباً إلى الأشرار، ولكنها حكمة خدّاعة ومزيّفة. وهذان النوعان من الحكمة في صدام دائم. وفي الحقيقة إننا إذا ما تطلعنا من فوق قمة جبل سيناء العالية أو من الجلجثة فإننا نجد أن تاريخ العالم كله يبدو صراعاً بين حكمة الله وفكر الشيطان والبشر الساقطين. أما نتيجة الصراع فليس من شك فيها، فبجب أن يتداعى الناقص أمام الكامل في نهاية المطاف، ولقد وعد الله أن يأخذ الحكماء بمكرهم وأن يجهّل حكمة الحكماء.

والحكمة علاوة على ما تعنيه من أشياء أخرى هي القدرة على استنباط الأغراض الكاملة والوصول إلى هذه الأغراض لوسائل غاية في الكمال، فهي ترى النهاية منذ البداءة، ولذلك لا تكون هناك حاجة إلى الحدس والتخمين. فالحكمة ترى كل شيء بجلاء ووضوح، وترى كل شيء في علاقته مع غيره من الأشياء فهي قادرة على العمل نحو الأهداف المعينة بدقة لا تعرف نقصاً.

وكل أعمال الله يعملها بحكمة كاملة، وذلك لمجده الأعلى أولاً ثم لخير أكبر عدد ولأطول وقت، وكل أعماله طاهرة بقدر ما هي حكيمة، وهي صالحة بقدر ما هي طاهرة وحكيمة. وليس من المستحيل فقط أن تكون أعماله أحسن مما هي عليه، بل من المستحيل أن نتخيل طريقة أفضل لإنجازها. فالإله المتناهي الحكمة لا بد أن يعمل بطريقة لا يدخل عليها تحسين من قبل خلائقه. "ما أعجب أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت. مملوءة الأرض من غناك."

ولولا الخليقة لظلت حكمت الله مختزنة في أعماق الطبيعة الإلهية غير المحدودة. ولقد أوجد الله المخلوقات حتى يستمتع بها وحتى تفرح به "ورأى الله ذلك أنه أحسن."

ولقد أعلن الكثيرون على ممر العصور أنهم غير قادرين على الإيمان بالحكمة الأساسية لعالم يكثر فيه الشر والخطأ. ويكتب فولتير عن شخص متفائل اسمه الدكتور بانغلوس Dr. Pangloss ، ثم هو يضع في فمه كل الحجج على صحة الفلسفة التي تقول "بأحسن ما في العوالم". وبالطبع فلقد أعجب الساخر الفرنسي جداً أن يضع الأستاذ العجوز في مواقف تظهر فلسفته بمظهر مضحك مزرٍ.

ولكن النظرة المسيحية للحياة هي أكثر واقعية تماماً من نظرة الدكتور بانغلوس صاحب "السبب الكافي". ذلك أن هذه العوالم الآن ليست هي أفضل العوالم، بل أن عالمنا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يزرح تحت ظل كارثة عظمى، ألا وهي سقوط الإنسان، ويصر كاتبو الكتاب المقدس بالوحي على أن الخليقة كلها تئن وتتمخض الآن تحت الهزة الهائلة، هزة السقوط. وهم لا يحاولون أن يعطوا "أسباباً كافية" بل يقررون أن الخليقة أخضعت "للبطل، ليس طوعاً بل من أجل الذي أخضعها على الرجاء". فليس من ذكر هنا لأي مجهود لتبرير طرق الله مع البشر، بل هنا مجرد تقرير للواقع. فوجود الله في حد ذاته الدفاع والبرهان لنفسه.

ولكن في دموعنا أملاً. فعندما تحين ساعة نصرة المسيح سوف يعتق العالم المتألم إلى حرية مجد أولاد الله. فالعصر الذهبي بالنسبة للخليقة الجديدة ليس في حكم الماضي بل هو في ذمة المستقبل، وعندما يؤتى به سيرى العالم في دهشته أن الله حقاً قد أجزل لنا العطاء بكل حكمة وفطنة. أما الآن فإن رجاءنا في الإله الحكيم وحده مخلصنا، ونحن ننتظر بصبر تتميم مقاصده الحميدة على مهل.

وبالرغم من الدموع والألم والموت فإننا نؤمن أن الله الذي جبلنا كلنا حكيم وصالح حكمة وصلاحاً لا حد لهما. وكما لم يرتب إبراهيم في مواعيد الله بعدم إيمان بل تقوّى بالإيمان معطياً مجداً لله وتأكد أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضاً، فكذلك نحن أيضاً نضع رجاءنا في الله وحده ونرجو بالرغم من عدم جدوى الرجاء في الظاهر إلى أن ينبلج الصبح. إننا نستريح في كنه الله. هذا هو الإيمان الحق كما اعتقد وكل إيمان يحتاج إلى دعم من الحواس ليس إيماناً صادقاً. "قال له يسوع لأنك رأيتني يا توما آمنت طوبى للذين آمنوا ولم يروا".

إن شهادة الإيمان تقول أنه مهما بدت الأمور في هذا العالم الساقط فإن كل أعمال الله قد عملت في حكمة كاملة. ولقد كان ظهور الابن السرمدي في الجسد أحد أعمال الله العظيمة، ونحن نثق أن هذا العمل المهوب قد تم بكمال لا يستطيعه إلا من هو غير محدود. " وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر قي الجسد."

وكذلك فعمل الفداء أيضاً قد تم بالدقة عينها التي لا عيب فيها تلك الدقة التي تتميز بها كل أعمال الله. ومهما كان فهمنا يسيراً فإننا نعلم أن عمل المسيح الكفاري قد صالح الله والإنسان مصالحة كاملة وفتح ملكوت السموات لكل المؤمنين. فنحن لا يعنينا هنا أن نبرهن بل أن نعلن. بل إنني أتساءل هل يمكن أن يفهمنا الله كل ما جرى هناك على الصليب. يقول الرسول بطرس أنه حتى الملائكة لا يعرفون، مهما رغبوا بحماسة أن يطلعوا على هذه الأمور.

وعمل الإنجيل، والولادة الجديدة، وحلول الروح القدس في الطبيعة البشرية في الإنسان، واندحار الشر في النهاية وإقامة مملكة المسيح بالبرّ في النهاية، كل هذه فاضت وتفيض من ملء حكمة الله اللانهائية. وأحدّ عين لأقدس مُشاهد في جمع المباركين في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

السماء لا يمكنها أن تكتشف عيباً في طرق الله لتتميم كل هذا. كما لا تقدر كل حكمة الساروفيم والساروبيم مجتمعة أن تقترح تعديلاً لتحسين طريق الله. "قد عرفت أن كل ما يعمله الله أنه يكون إلى الأبد. لا شيء يزاد عليه ولا شيء ينقص منه. وإن الله عمله حتى يخافوا أمامه".

ومن المهم أهمية حيوية أن نؤمن بحكمة الله اللانهائية كعقيدة من عقائد قانون الإيمان، ولكن ذلك ليس كافياً، بل يجب علينا عن طريق الإيمان والصلاة أن نمارس ذلك في حياتنا العملية يوماً بعد يوم. ومما ينيل النفس بركة حقة أن يؤمن الفرد إيماناً حياً بأن الآب السماوي ينشر حولنا باستمرار ظروفاً تعمل لخيرنا في الحاضر ولخيرنا الأبدي كذلك. كثيرون منا يصلون قليلاً في حياتهم، ويخططون قليلاً، ويحتالون للحصول على مركز، ويأملون في شيء ما دون أن يكون لهم يقين بالحصول عليه، وهم دائماً خائفون أن يضلوا الطريق. وذلك مضيعة للحق تدعو إلى الأسى ولن يعطي القلب راحة أو اطمئناناً.

ولكن هناك طريقاً أفضل، وهو أن نرفض حكمتنا وأن نتسلح بحكمة الله اللانهائية عوضاً عنها. ومن الطبيعي أن نصر على محاولاتنا لاستطلاع الطريق ولكن ذلك معطل لنمونا الروحي. فلقد تكفّل الله بمسؤولية سعادتنا الأبدية وهو على أهبة الاستعداد لأن يتسلم زمام حياتنا في اللحظة التي نأتي إليه فيها بالإيمان. وهاك وعده "وأسيّر العمي في طريق لم يعرفوها في مسالك لم يدروها أمشيهم. أجعل الظلمة أمامهم نوراً والمعوجات مستقيمة. هذه الأمور أفعلها ولا أتركهم."

دعه يقود المعصوب العينين إلى الأمام

فالمحبة لا تحتاج أن تعرف

والأطفال الذين يقودهم أبوهم

لا يسألون إلى أين هم ذاهبون

ولو كان الدرب غير معروف

فوق أرض سبخة وجبال موحشة.

غيرهارد ترستيجنGerhard Tersteegen

والله يشجعنا دائماً لنتكل عليه في الظلام "أنا أسير قدامك والهضاب أمهد. أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك."

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ومما يشجعنا ويقوينا أن نعرف كم من أعمال الله العظيمة قد عملت في السر بعيداً عن تجسس أعين الناس والملائكة. وعندما خلق الله السموات والأرض كانت على وجه الغمر ظلمة، وعندما صار الكلمة السرمدي جسداً كان محمولاً بعض الوقت في ظلمة رحم العذراء المباركة، وعندما مات من أجل حياة العالم كان ذلك وسط الظلام ولم يكن أحد يبصره في النهاية، وعندما قام من الأموات كان ذلك "في الصبح باكراً جداً". لم يبصره أحد في أثناء قيامته، كأنما الله كان يقول: "يكفيكم أنني أنا ما أنا إذ في هذا رجاؤكم وسلامكم. سأعمل ما أعمل وسوف تفهمونه في النهاية، أما كيف أعمل فهذا هو سري أنا. ثقوا بي ولا تخافوا."

فماذا يعوزنا وصلاح الله يبغي أقصى خيرنا، وحكمة الله تخطط له وقوة الله تحققه. حقاً إننا أكثر مَن أُنعم عليهم من بين كل المخلوقات:

في خطط جابلنا العظيمة كلها

تتجلى قوته في حكمته

وكل أعماله في هذا الوجود العظيم

تحدث بمجد اسمه

توماس بلاكلوكThomas Blacklock

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثاني عشر: قدرة الله على كل شيء

أبانا السماوي لقد سمعناك تقول:"أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً". ولكن إن لم تعطنا القدرة بعظمة قدرتك الفائقة فكيف نسير في طريق كامل ونحن الضعفاء والخطاة بالطبيعة. علمنا أن نتمسك بعمل قدرتك الفائقة التي عملت في المسيح إذ أقمته من الأموات وأجلسته عن يمينك في السموات. آمين.

سمع يوحنا في وقت رؤياه صوتاً كصوت جمهور عظيم وكصوت مياه كثيرة وكصوت رعود في الكون كله، وما أعلنه ذلك الصوت كان سلطان الله وقدرته على كل شيء: "هللويا. فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شيء."

فللّه ما لا يتوفر لمخلوق: فله قدرة فائقة تعلو عن كل فهم، وله السلطان المطلق. ولقد عرفنا ذلك عن طريق الوحي الإلهي، وعندما نعرف ذلك نجد أنه يطابق العقل تماماً. فإذا ما سلمت بأن الله غير محدود وكائن بذاته رأيت فوراً أنه يجب أن يكون بالضرورة قادراً على كل شيء، وعندئذٍ ينحني العقل أمام قدرة الله في خشوع وتعبد.

ويقول المرنم: "العزة (القدرة) لله". وكذلك يعلن الرسول بولس أن الطبيعة نفسها تعلن قوة الله السرمدية (رو ١: ٢٠). ومن هذه المعرفة نتدرج إلى معرفة قدرة الله على كل شيء: فالله قادر. وبما أن الله غير محدود أيضاً فلذلك كل ما له ليست له حدود. ولذلك له قدرة غير محدودة. فهو قائم على كل شيء. كما نرى كذلك أن الله الخالق القائم بذاته هو منبع كل قدرة موجودة، ولما كان النبع يستوي على الأقل مع المنبع الذي صدر عنه، فالله بالضرورة مساوٍ لكل القدرات الموجودة. وبمعنى آخر إنه قادر على كل شيء.

ولقد وكّل الله قدرةً لخلائقه، ولكن بما أنه مكتف في ذاته، فهو لا يمكن أن يتنازل عن شيء من كمالاته، ومن هذه الكمالات قدرته. إنه لم يتنازل عن ذرة من قدرته. إنه يعطي ولكنه لا يتنازل. فكل ما يعطيه لا يزال ملكاً له وإليه يعود، فهو يبقى إلى الأبد كما هو، الرب الإله القادر على كل شيء.

وليس علينا أن نقرأ كثيراً بتفهم في الكتاب المقدس لنلاحظ التفاوت الجذري بين نظرة رجال الكتاب المقدس ونظرة الإنسان العصري. إننا اليوم نشكو من العقلية الدنيوية. فبينما كان رجال الله القديسون يرون الله إذ بنا نرى قوانين الطبيعة. وعالمهم كان آهلاً بالسكان إلى درجة الملء أما عالمنا نحن فخلو من السكان تماماً وكان عالمهم شخصياً ينبض بالحياة أما عالمنا فمبهم وميت. لقد كان الله يملك على عالمهم أما عالمنا نحن فتسوده قوانين الطبيعة، ونجد نحن أنفسنا بعيدين عن حضرة الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وما هي قوانين الطبيعة هذه التي حلت محل الله في عقول الملايين؛ فكلمة قانون لها معنيان، فهي تعني قاعدة خارجية مفروضة بسلطان، مثال ذلك القانون العادي ضد السرقة والسطو. وهي كذلك تعني الطريقة الموحدة التي تسير عليها الأشياء في الكون، ولكن هذا الاستعمال الثاني استعمال خاطئ فما نراه في الطبيعة هو بكل بساطة الطريق التي تسلكها قدرة الله وحكمته في الخليقة، وهذه في حقيقتها ظواهر لا قوانين، ولكننا نسميها قوانين جدلاً بالمقابلة مع قوانين المجتمع.

فالعلم يلاحظ كيف تعمل قدرة الله، ويكتشف طريقة رتيبة هنا أو هناك فيرصدها "كقانون" وتجانس أعمال الله في خليقته يمكّن العالم من التنبؤ بالظواهر الطبيعية. وثبات تصرفات الله في عالمه هو أساس كل حق علمي، إذ عليه يبني العالم إيمانه، ومنه ينطلق ليقوم بجلائل الأعمال النافعة في حقول الملاحة والكيمياء والطب والفن وما شاكلها.

أما الدين فتحول من الطبيعة إلى الله، فهو لا يعنى بطريق الله في سبل الخليقة، بل هو يعنى بذلك الذي يطأ هذه السبل. فالدين يُعنى أولاً بذلك الذي هو مصدر كل الأشياء، وسيد كل ظاهرة. وعلى هذا الواحد أضفت الفلسفة أسماء عديدة، ولعل أكثر اسم رهبة هو ذلك الذي أطلقه رودلف اوتو" : Rudolf Otto المطلق، الهائل، الذي لا يهدأ أبداً، ضغط العالم الفعّال." ويغتبط المسيحي إذ يذكر أن "ضغط العالم" هذا قال مرة "أهيه" أي "أنا هو"، وأن أعظم معلم على الإطلاق علم تلاميذه أن يخاطبوه كشخص إذ قال: "متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك...." ولقد تحدث أناس الكتاب المقدس في كل مكان مع هذا "المطلق الهائل" بعبارات شخصية جداً، وسار معه النبي والقديس في محبة فائقة دافئة وثيقة ومشبعة جداً.

والقدرة على كل شيء ليست عبارة تطلق على مجموع القدرات كلها، بل هي صفة من صفات الذات الإلهية الذي نؤمن نحن المسيحيين بأنه أبو ربنا يسوع المسيح، وأب لكل الذين يؤمنون به للحياة الأبدية. ويجد الشخص العابد في هذه المعرفة مصدراً لقوة عجيبة لحياته الداخلية، فيرتفع إيمانه ليقفز قفزة رائعة إلى الأمام إلى الشركة مع ذلك الذي له القدرة على أن يفعل كل ما يريد والذي ليس لديه شيء غير مستطاع لأنه يملك القدرة المطلقة.

وبما أن له كل القدرة في الكون فإن الرب الإله القادر على كل شيء يستطيع أن يعمل كل شيء بنفس السهولة واليسر اللذين بهما يعمل الشيء الآخر. فكل أعماله يعملها بدون مجهود. فهو لا يبذل طاقة يجب تعويضها، فكفايته بذاته تجعله في غنى عن أن يسعى لتجديد قواه عن طريق خارج ذاته. فكل القدرة اللازمة للقيام بكل ما يريد عمله كامنة في الكمال الذي لا ينقص ولا ينفد الموجود في كيانه اللانهائي.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

حدث أن سمع الراعي المشيخي أ. ب. سمبسون A. B. Simpson هذه الترنيمة لمرنمين زنوج، سمعها وهو على عتبة منتصف العمر وقد وهنت صحته، وتطرق اليأس المرير إلى نفسه، وأصبح على شفار ترك الخدمة:

ليس شيء صعباً على يسوع

ليس من يستطيع أن يعمل مثله

فنفذت رسالتها كسهم إلى قلبه حاملة معها الإيمان والرجاء والحياة إلى جسده ونفسه. فطلب مكاناً للاختلاء، وبعد فترة من الانفراد مع الله قام من جثوه وقد شفي شفاء تاماً وراح في ملء الفرح ليؤسس ما أصبح بعد ذلك أكبر إرسالية أجنبية في العالم. وعمل بدون كلل ولا ملل في خدمة المسيح لمدة خمس وثلاثين سنة بعد تلك المقابلة التي تقابلها مع الله. لقد أعطاه إيمانه بالله الذي لا حد لقدرته القوة التي كان يحتاجها للعمل:

أيها القادر على كل شيء إنني أنحني في التراب أمامك

وكذلك ينحني الكروبيم مستورين،

إنني أعبدك بورع هادئ ساكن

أيها الرفيق الكلي الحكمة والموجود في كل الوجود.

أنت أعطيت الأرض رداءها السندس الأخضر

كما كسوتها أيضاً بالثلج الناصع.

والشمس الساطعة والقمر اللامع في السماء

يسجدان أمام حضرتك.

سير جون بارونجSir John Bowring

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثالث عشر: السمو الإلهي

يا رب، يا ربنا، ليس نظيرك في السماء من فوق ولا على الأرض من تحت. لك العظمة والكرامة والجلال. لك كل ما في السماء وما في الأرض .ولك الملك والقوة والمجد إلى الأبد يا الله وقد ارتفعت كرأس فوق الجميع .آمين

عندما نقول أن الله سام فنحن نعني طبعاً أنه مرتفع على كل الكون المخلوق ،وهو مرتفع لدرجة أن الفكر البشري لا يمكن أن يتخيل سموه.

ولكي ندقق في تفكيرنا عن هذا يجب أن نتذكر أن عبارة "فوق" هنا لا تعني المسافة الطبيعية عن الأرض بل هي تشير إلى نوعية الوجود، فلا يعنينا في هذا المقام مكان أو مسافة أو علو بل تعنينا الحياة ذاتها.

الله روح، ولا يعني الحجم أو المسافة شيئاً بالنسبة له. إنهما مفيدان لنا كأمثلة وتشبيهات، وفي إطار هذا المعنى يشير الله إليهما دائماً عندما يخاطب إفهامنا المحدودة. وقول الله في أشعياء "هكذا قال العلي المرتفع ساكن الأبد" يعبر بصراحة عن معنى العلو، وما ذلك إلا لأننا نحن الساكنين في عالم المادة والمسافة والزمن نميل إلى التفكير في حدود المادة ولا يمكننا تفهم الأشياء المعنوية إلا إذا جسّدناها بأمور مادية. وفي نضال القلب البشري لتحرير نفسه عن ظلم العالم المادي فإنه يجب عليه أن يتعلم أن يوجّه اللغة التي يستعملها الروح لتعليمنا إلى ما هو أعلى وأسمى.

فالروح هو الذي يضفي على المادة أهمية، وليس من قيمة لأي شيء في النهاية بعيداً عن الروح. تصور طفلة صغيرة تضل عن جماعة من المتفرجين وتتيه فوق جبل، ففي الحال تتغير نظرات أعضاء الجماعة كلهم. فتضيع الدهشة والاستحسان لعظمة الطبيعة ويحل محلها قلق بالغ على الطفلة المفقودة. فتتفرق الجماعة في أرجاء الجبل وتنادي باسم الطفلة في قلق وهمّ. ويبحث الكل في كل مكان ناء قد تكون الطفلة الصغيرة لجأت إليه.

ما الذي أحدث هذا التغيير المفاجئ، فالجبل المكسو بالأشجار لا يزال في مكانه يناطح السحاب في جمال ساحر أخّاذ، ولكن ليس من يأبه به الآن. كل الاهتمام منصبّ على البحث عن تلك الطفلة المجعدة الشعر التي لا تعدو سنها السنتين ولا يبلغ وزنها خمسة عشر كيلو غراماً. فمع أنها حديثة السن وصغيرة فهي أغلى على والديها وأصدقائها من ذلك الجبل القديم الضخم الذي سحروا بجماله منذ دقائق معدودات، ويوافقهم على حكمهم هذا كل العالم المتمدن. فالطفلة الصغيرة تستطيع أن تحب وتضحك وتتكلم وتصلي، أما الجبل فلا يستطيع هذه، فنوعية الطفلة في وجودها هي التي أضفت عليها هذه القيمة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

على أنه لا يجب علينا أن نقارن بين وجود الله ووجود آخر بالأسلوب الذي قارنّا فيه بين الجبل والطفلة الصغيرة. ولا يجب علينا أن نفكر في سمو الله بمعنى أنه أسمى الكائنات في نظام تدريجي، مبتدئين بالخلية الواحدة ومتدرجين إلى السمك فالطير فالحيوان فالإنسان فالملاك فالكروب فالله. فمع أن هذا يعطي الله تقدماً، تقدماً على كل شيء إلا أنه ليس كافياً، بل يجب أن يكون له سمو بكل معنى الكلمة. فالله قائم بذاته من نور لا يدنى منه من الأزل وإلى الأبد. فهو أعلى من رئيس الملائكة علوه من الدودة البسيطة، ومهما كان فالمسافة بين رئيس الملائكة والدودة محدودة يمكن قياسها، وأما المسافة بين الله ورئيس الملائكة فغير محدودة ولا يمكن قياسها. والدودة ورئيس الملائكة مع أنهما بعيدان جداً الواحد عن الآخر بمقياس المخلوقات، إلا أنهما متشابهان في كونهما مخلوقين. وكلاهما يقع في قائمة الأشياء التي ليست هي الله وتفصلهما اللانهائية نفسها عن الله.

وفي قلب الإنسان الذي يرغب في التحدث مع الله يتزاحم الصمت والإجبار على الكلام:

كيف يتجاسر البشر النجسون

على الترنم بمجدك ونعمتك

فعند قدميك نخرّ بعيدين

ولا نرى إلا ظلالاً لوجهك.

ايزاك واتس

إلا أننا نعزي أنفسنا بأن الله نفسه هو الذي يضع على قلوبنا أن نطلبه ويمكننا على نوع ما أن نعرفه، وأنه يسر بأي مجهود من جهتنا ولو كان ضعيفاً للإعلان عنه والتعريف به.

ولو أن متفرجاً أو أحد القديسين ممن قضوا قروناً سعيدة بجوار بحر النار قد جاء لزيارة الأرض، فكم تبدو له عديمة المعنى تلك الضوضاء والجلبة التي لا تهدأ الصادرة عن قبائل البشر الدائبي العمل . وكم تبدو عجيبة له وفارغة وعارية عن كل معنى تلك الكلمات البالية العديمة القيمة التي ينادى بها من فوق المنبر العادي من أسبوع لأسبوع. ولو أتيح لشخص كهذا الزائر أن يتكلم أفلا يتكلم عن الله؟ أفلا يسحر سامعيه ويخلب لبهم بما يذيعه من أوصاف مبهجة للاهوت؟ وهل نرضى بعد أن سمعناه أن نصغي إلى شيء آخر خلاف الأمور اللاهوتية والتعليم عن الله، وألا نطلب إلى من يضطلعون بمهمة تعليمنا أن يتحدثوا إلينا من جبل الإعلان الإلهي أو أن يسكتوا بالكلية؟

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وعندما رأى المرنم معاصي الرجل الشرير حدّثه قلبه، وتعجب "إن ليس خوف الله أمام عينيه". فأعلن لنا في قوله هذا سيكولوجية الخطية. فعندما لا يخاف الناس الله يتعدون نواميسه بلا تردد، وعندما ينتفي خوف الله لا يمنع الإنسان من اقتراف الخطية خوف من العواقب.

ولقد قيل عن رجال الله في القديم أنهم كانوا يسيرون في خوف الله "ويخدمون الله بخوف". فمهما كانت شركتهم مع الله عميقة، ومهما كانت صلواتهم جريئة فقد كانت حياتهم الدينية مؤسسة على الاعتقاد بأن الله مهوب ورهيب. والاعتقاد بأن الله رهيب مهوب يجري خلال الكتاب المقدس كله ويضفي على سيرة القديسين لوناً ومعنى. وخوف الله هذا كان أكثر من الخوف الطبيعي من الخطر، كان رهبة لا يمكن تفسيرها بالعقل، كان شعوراً حاداً بعجز الإنسان الشخصي في حضرة الله القادر على كل شيء.

وفي كل مرة ظهر الله فيها للناس كما هو مدون في الكتاب المقدس كانت النتائج واحدة في كل الحالات، شعور عارم بالخوف والرهبة، وإحساس حاد بالخطية والجرم. فعندما تكلم الله وقع ابرام على وجهه إلى الأرض وأصغى. وعندما شاهد موسى الرب في العليقة المشتعلة غطى وجهه وخاف أن ينظر إلى الله. ولقد انتزعت رؤية الله من أشعياء صرخة مدوية "ويل لي" واعترافاً صريحاً "إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين."

ولعل رؤية دانيال لله كانت مبعث خوف وعجب أكثر من هذه جميعها، فلقد رفع النبي عينيه ورأى شخصاً "جسمه كالزبرجد ووجهه كمنظر البرق وعيناه كمصباحي نار وذراعاه ورجلاه كعين النحاس المصقول وصوت كلامه كصوت جمهور. فرأيت أنا دانيال الرؤيا وحدي والرجال الذين كانوا معي لم يروا الرؤيا العظيمة ولم تبق فيّ قوة وسمعت صوت كلامه. ولما سمعت صوت كلامه كنت مسبخاً على وجهي ووجهي إلى الأرض."

وتوضح هذه الاختبارات أن رؤيا من السمو الإلهي تضع حداً فورياً لكل جدل – بين الإنسان والله- ويختفي النزاع من الإنسان ويصبح كشاول المغلوب مستعداً أن يسأل بتواضع ودعة "يا رب ماذا تريد أن أفعل". ما أبعد هذا عما نراه الآن من المسيحيين المعاصرين من تثبيت لذواتهم، والرعونة والطيش في كثير من الاجتماعات الدينية، والاستخفاف المروّع بالذات الإلهية، مما ينهض دليلاً كافياً على العمى المطبق في القلوب. كثيرون يسمون اسم المسيح، ويتحدثون عن الله كثيراً، ويصلون إليه في بعض الأحايين، ولكن من الواضح أنهم لم يتعرفوا عليه. "مخافة الرب ينبوع حياة" إلا أن هذا الخوف الشافي يندر أن نراه اليوم بين المسيحيين.

كان الشاعر جوته Goethe يتحدث يوماً مع صديقه اكرمان Eckerman فانتقل في حديثه إلى موضوع الدين وتكلم عن إساءة استعمال اسم الله وقال "سيتكلم الناس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

عنه كأنما ذلك الذي يعلو على الإدراك والذي فوق كل تصورات الأفكار معادل أو نظير لهم ، ولو لم يكونوا يفكرون كذلك لما قالوا الرب الإله ، الله العزيز ، الله الطيب : فتصبح تلك العبارة لهم ، ولا سيما لرجال الدين الذين ينطقون بها كل يوم ، مجرد كلام ، ومجرد اسم خالٍ من كل معنى يتصل به . ولو أنهم تأثروا بعظمته لصمتوا وأحجموا عن النطق باسمه خشوعاً وإجلالاً:"

يا رب الوجود، المتوج في علاك

إن مجدك يتقد من الشمس والقمر

يا قلب كل منطقة وروحها

ومع ذلك فما أقربك إلى كل قلب محب

يا رب كل حياة هنا من تحت وهناك من فوق

يا من نورك حق، ودفؤك محبة

إننا أمام عرشك النوراني دائماً

لا نريد بريقاً من صنعنا

اولفر وندل هولمزOliver Wendell Holmes

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الرابع عشر: وجود الله في كل مكان

يا أبانا إننا نعلم أنك حاضر معنا، ولكن معرفتنا ليست إلا قبساً وظلاً ولها القليل من المذاق الروحي والحلاوة الداخلية التي يجب أن توفرها معرفة كهذه، وتلك خسارة كبيرة وسبب لضعف قلبي كبير. أعنا يا رب حتى نصلح حياتنا فوراً كما يجب حتى نختبر المعنى الصحيح للقول "أمامك شبع سرور". آمين.

تعني العبارة "كلي الوجود" إن الله حاضر في كل مكان، هنا وبالقرب من كل واحد.

وقليل من حقائق الكتاب هو الذي يذكر بكل جلاء ووضوح كحقيقة حضور الله في كل مكان –والمواضع التي تذكر فيها هذه الحقيقة واضحة جلية بدرجة أنه من الصعب أن يسيء المرء فهمها- وتعلن كلها أن الله موجود في خليقته وأنه لا يوجد مكان في السماء أو على الأرض أو تحت الأرض يستطيع فيه الإنسان أن يختفي من حضرة الله. وهي تعلمنا أن الله بعيد جداً وقريب جداً في وقت واحد، وإنه به يحيا الناس ويتحركون ويوجدون. وتقنعنا كذلك أن نفترض دائماً أن الله موجود في كل مكان لكي نفهم الحقائق الأخرى التي تُحدثنا عنه.

فالكتاب مثلاً يحدثنا أن الله غير محدود وهذا معناه أن كيانه لا يعرف حدوداً ولذلك فحضوره لا يعرف حدوداً، أي أنه حاضر في كل مكان، فهو في عدم محدوديته يحيط بالخليقة المحدودة ويحتويها، فلا يوجد مكان لشيء ما خارجه، فالله محيطنا أو بيئتنا كما البحر للسمك والفضاء للطير وكما قال هلدبرت اوف لافاردين Hildebert of Lavardinفإن "الله فوق كل شيء وتحت كل شيء وخارج كل شيء، فهو في الداخل دون أن يحتويه أي شيء وهو في الخارج دون أن يخلو منه شيء وهو تحت كل شيء دون أن يعلوه شيء، وهو بالكلية من فوق يسود على الكل، وهو من تحت حامل لكل الأشياء وهو في الداخل يملأ الكل."

والقول بأن الله في الكون الذي خلقه لا يمكن أن يكون قولاً معزولاً عن نتائج معينة، إذ له تطبيقات عملية في حقول كثيرة من الأفكار اللاهوتية وله علاقة مباشرة بمشاكل دينية معينة مثال ذلك طبيعة العالم. فلقد شُغل المفكرون في كل عصر وثقافة تقريباً بمعرفة طبيعة هذا العالم الذي نعيش فيه: أهو عالم مادي يسيّر نفسه بنفسه، أم هو عالم روحي تسيّره قوات خفيّة؟ هل هذه الأنظمة المتشابكة تفسر ذاتها أو أنها سر معقّد خفيّ؟ وهل مجرى الوجود يبدأ وينتهي بنفسه، أو أنه ينبع من فوق، من بعيد في التلال والمرتفعات؟

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ويدّعي علم اللاهوت المسيحي بأن عنده الجواب عن هذه الأسئلة، فهو لا يخمن أو يتحسس الإجابات بل يقدم الدليل القاطع بسلطان في قوله "هكذا يقول الرب"، ويجزم بأن العالم روحي بدأ في الروح ويفيض من الروح وهو روحي في جوهره، ولا معنى له بدون الروح الذي يسكنه.

وعقيدة حضور الله في مكان تجسّم علاقة الإنسان بالكون الذي يجد نفسه فيه، وهذا الحق الأساسي يضفي معنى على كل الحقائق الأخرى ويجعل قيمة عظيمة جداً لحياته الصغيرة كلها. فالله حاضر بقربه وإلى جانبه، والله هذا يراه ويعرفه كله معرفة تامة. ومن هذه النقطة يبدأ الإيمان. وبينما هو يمتد ليشمل ربما الآلاف من الحقائق العجيبة فإن هذه كلها مرجعها أن الله موجود وإن الله هنا. وهكذا تقول الرسالة إلى العبرانيين "الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود". ويقول الرب يسوع المسيح نفسه "أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي."

ويعلمنا العهد الجديد أن الله خلق العالم بالكلمة، والكلمة هو الأقنوم الثاني من اللاهوت الذي كان في العالم حتى قبل أن يصير جسداً. فالكلمة صنع كل الأشياء وظل في العالم الذي خلقه ليحمله ويكون في الوقت عينه نوراً أدبياً يساعد كل إنسان على التمييز بين الخير والشر. فالكون يعمل بنظام وإتقان، فهو لا يسير بنواميس مبهمة، بل بالصوت الذي خلقه الصادر من الحضور الإلهي الملازم للكون كله، من الكلمة.

ويحدثنا كانون و. ج. هـ. هولمز Canon W. G. H. Holmes إنه شاهد المتعبدين من الهندوسيين يقرعون على الأشجار والأحجار ويهمسون قائلين "هل أنت هنا؟ هل أنت هنا؟" إنهم يهمسون إلى الإله الذي قد يكون في الشجرة أو في الحجر. والمسيحي المستنير يأتي بكل تواضع حاملاً الإجابة عن هذا السؤال. نعم إن الله هناك. إنه هناك كما أنه هنا وفي كل مكان، لا تحده شجرة أو حجر بل هو مطلق في الكون كله، قريب من كل شيء، وإلى جانب كل إنسان، ويستطيع كل قلب محب أن يأتي إليه مباشرة بيسوع المسيح. فعقيدة حضور الله في كل مكان تجيب عن هذا السؤال الإجابة الشافية إلى الأبد.

وهذا الحق مصدر تعزية عظيمة للمسيحي الذي يؤمن به. يعزيه في أحزانه ويمنحه الثقة التي لا تتزعزع في كل اختبارات الحياة المختلفة، فاختبار حضور الله لا يعني بالنسبة له خيالاً صادراً عن فكرة يحاول تجسيمه بل هو معرفة الحضور الحقيقي لذلك الذي تعلنه كل معرفة لاهوتية صحيحة وتعلم بوجوده فعلاً وجوداً محسوساً مستقلاً عن كل إدراك من خلائقه له. ونتيجة هذا الاختبار حقيقة وليست خيالاً.

وتأكيد قرب الله منا دائماً وحضوره في كل أنحاء العالم الذي عمله وكونه أقرب إلينا من أفكارنا، يجب أن يجعلنا في حالة سعادة أدبية عالية في معظم الأوقات، ولكن ليس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

في كل الأوقات، فليس من الأمانة في شيء أن تعد كل مؤمن بيوبيل دائم مستمر، كما أنه ليس عملياً أن نتوقعه. فكما يصرخ الطفل من الألم حتى ولو كان في ذراعي أمه فكذلك المسيحي قد يختبر الألم أحياناً حتى ولو كان يشعر بحضور الله. ومع أن بولس يقول "دائماً فرحون" إلا أنه يعترف بأنه أحياناً يكون في حزن. ولقد اختبر المسيح الصراخ بصوت عالٍ والدموع مع إنه لم يفترق لحظة واحدة عن حضن الآب (يو ١: ١٨).

ولكن كل شيء بخير، فالدموع في عالم كهذا لها عملها العلاجي فالبلسان الشافي الذي يقطر من ثوب الحضور الإلهي الذي يحيط بنا يشفي أوجاعنا قبل أن تصبح قاتلة. ومعرفتنا بأننا لسنا وحدنا أبداً تهدئ بحر حياتنا المضطرب، وتتكلم بالسلام إلى نفوسنا.

والكتاب المقدس والعقل يعلنان أن الله هنا، وما علينا إلا أن نتعلم أن نلاحظ ذلك في اختباراتنا الواعية. ولعل عبارة واحدة من رسالة للدكتور آلان فليس Allen Fleece Dr.تلخص شهادة الكثيرين "إن معرفة حضور الله مباركة، ولكن الإحساس بحضوره هو السعادة بعينها."

يعلن الله حضوره

فلنعبده الآن

ونظهر أمامه برعدة.

إننا نعبده، وحده هو الله

هو ربنا ومخلصنا

فالشكر لاسمه إلى الأبد.

الله نفسه معنا

الله تخدمه جيوش الملائكة

بخوف في السموات.

غيرهارد ترستيجن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الخامس عشر: أمانة الله

حسن هو الحمد للرب والترنم لاسمك أيها العلي أن يخبر برحمتك في الغداة وأمانتك في كل ليلة. وكما كان ابنك في ولائه لك عندما كان على الأرض يا أباه السماوي، هكذا الآن في السماء هو أمين لنا نحن أخوته على الأرض وبهذه المعرفة نحن نتقدم بكل رجاءٍ واثقٍ كل السنين والدهور الآتية آمين.

إن صفات الله كما قلنا سابقاً ليست هي سجايا منفصلة مستقلة لمسلكه بل هي مظاهر وأوجه لكيانه الواحد. وليست هي أموراً في حد ذاتها بل هي أفكار نفكر نحن بها عن الله، مظاهر لكلٍ كاملٍ، أسماء لكل ما نعرف أنه يصدق على اللاهوت الأقدس.

ولكي يكون فهمنا لصفات الله فهماً صحيحاً يجب أن نراها ككل. إننا نستطيع أن نفكر فيها كلٍ على حدته ولكنها لا يمكن أن تُفصل الواحدة عن الأخرى. يقول نيكولاس اوف كوسا Nicholas of Cusa : " لا يمكن أن تختلف الصفات التي ننسبها لله في حقيقتها وذلك لبساطة الله الكاملة مع إننا بطرق مختلفة نستعمل كلمات مختلفة عن الله. ولذلك فمع إننا ننسب لله البصر والسمع والذوق والشم واللمس والحس والعقل والذكاء وغير ذلك تبعاً لما تعنيه كل كلمة إلا أن البصر فيه يختلف عن السمع أو الذوق أو الشم أو اللمس أو الحس أو الفهم، وهكذا فكل علم اللاهوت كما يقال يرسم في دائرة لأن كل صفة من صفاته تعالى تؤكدها أخرى."

وعندما ندرس إحدى الصفات تتضح حالاً الوحدة الأساسية لكل الصفات فنرى مثلاً إنه لما كان الله موجوداً بذاته فيجب بالتالي أن يكون مكتفياً في ذاته، وإذا ما كانت له القوة وجب أن تكون له كل القوة لأنه غير محدود. وإذا ما كان له علم فإن عدم محدوديته تؤكد لنا أن له كل العلم. وكذلك فإن عدم تغيره تفترض أمانته. وإذا ما كان غير متغير فهو بالتالي لا يقدر أن يكون غير أمين وإلا لوجب عليه أن يتغير فكل تقصير في المسلك الإلهي يدل على عدم الكمال، ولكن بما أن الله كامل فلا يمكن إذن لكل ذلك أن يحدث. وهكذا فإن الصفات تفسر إحداها الأخرى وتنهض دليلاً على إنها ومضات يستمتع بها العقل عن الله الكامل كمالاً مطلقاً.

وأعمال الله كلها متوافقة مع صفاته، فلا تتعارض أية صفة مع صفة أخرى، بل تتجانس وتتوافق كلها وتندمج في بعضها البعض في عمق الله الذي لا يحد. وكل ما يعمله الله يتناسب مع كيان الله. فالكيان والعمل هما واحد فيه. والصورة التي تُرسم عادة لله بأنه محصور بين العدل والرحمة إنما هي صورة لا تتفق أبداً مع الحقائق. فالتكفير في أن الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يميل أولاً إلى الناحية الواحدة ثم بعد ذلك إلى الناحية الأخرى معناه أن يتخيل الإنسان إلهاً غير واثق من ذاته، فاشلاً وغير مستقر من الناحية الوحدانية، أي أن ذلك الذي نفكر فيه هكذا ليس إلهاً بالمرة بل هو انعكاس ذهني ضعيف غير مركّز له.

ولأن الله هو من هو، فلذلك لا يمكنه أن يتوقف عن أن يكون ما هو عليه، ولأنه هو ما هو لا يمكنه أن يعمل ما يتنافى مع ذاته. فهو لفوره أمين ولا يتغير وهكذا الحال مع أقواله وأعماله ولا بد أن تظل أمينة. والناس يصبحون غير أمناء عن طريق الرغبة أو الرهبة أو الضعف أو عدم الاهتمام أو لتأثير خارجي قوي. وبديهي أن الله لا يتأثر بأي حال من الأحوال. فهو مصيب في كل ما هو وفي كل ما يعمله، ولا يمكن أن يتعرض لضغط أو إكراه خارجي بل هو يتكلم ويعمل من الداخل حسب مشيئته المطلقة ومسرته.

ومن الممكن القول أن كل بدعة أصيبت بها الكنيسة على مر السنين مرجعها تصور أشياء غير صحيحة عن الله، أو تشديد أكثر من اللازم على بعض النقاط الصحيحة وإغفال البعض الآخر مما يستوي في صحته مع تلك النقاط. فتعظيم صفة على صفة أخرى معناه السير قدماً نحو مستنقعات لاهوتية مظلمة، ومع ذلك فالتجربة لعملٍ كهذا قوية أمامنا دائماً.

فالكتاب المقدس مثلاً يعلمنا أن الله محبة، ولقد فسر البعض هذا بطريقة كأنها إنكار صحيح لعدله، ذلك العدل الذي يعلمنا إياه الكتاب المقدس أيضاً. وآخرون ينّبرون على تعليم الكتاب المقدس عن صلاح الله لدرجة أنهم يجعلون هذا الصلاح يتعارض مع قداسته، أو أنهم يجعلون حنانه يلغي حقه، وغيرهم يفهمون سيادة الله بطريقة تجعلها تلغي صلاحه ومحبته أو على الأقل تقللهما.

إن نظرتنا إلى الحق تكون صحيحة إذا ما آمنّا بكل شيء قاله عن نفسه. إنها لمسؤولية عظمى تلك التي يأخذها الإنسان على عاتقه عندما يستنبط من إعلانات الله عن نفسه صوراً لا يقبلها ذلك الإنسان في جهله. وكل من يتجاسر منا فيحاول أن يفعل مثل هذا الأمر لا شك أنه سيصاب بعمىً جزئي: وهذا أمر لا داعي له على الإطلاق. فلا يجب علينا أن نخشى أن يبقى الحق كما هو مكتوب، فصفات الله لا تتعارض مع بعضها البعض، وكيان الله وحيد فريد، فهو لا يمكن أن يتجزأ في ذاته ويعمل في وقت ما بحسب صفة من صفاته بينما تبقى الصفات الأخرى بلا عمل. فكل ما هو الله يجب أن يتفق مع كل ما يعمله الله. فالعدل يجب أن يوجد في الرحمة، والمحبة في الدينونة، وهكذا الحال مع بقية الصفات.

وأمانة الله من جملة معلومات علم اللاهوت الصحيح، ولكنها للمؤمن أمر يفوق ذلك بكثير، فهي تمر في عملية التفكير فتصبح غذاءً نافعاً للنفس. فالكتاب المقدس لا يعلم الحق فحسب بل هو يبين فوائده ومزاياه للبشر. فالكتّاب الذين أوحى إليهم كانوا أناساً نظيرنا وعاشوا في وسط الحياة، ولقد أصبح لهم ما تعلموه عن الله بمثابة السيف والدرع والمطرقة، وغدا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الدافع والحافز على الحياة، ورجاءهم الصالح، وانتظارهم الوطيد، ولقد حصلت قلوبهم على آلاف مؤلفة من الاستنتاجات المفرحة والاختبارات الشخصية من الحقائق اللاهوتية المنظورة وكتاب المزامير تتجاوب أصداؤه بالشكر والفرح لأمانة الله، ويتابع العهد الجديد هذا الموضوع ويعظم أمانة الله الآب وابنه يسوع المسيح الذي اعترف الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطي، ونرى يسوع المسيح في سفر الرؤيا راكباً على فرس أبيض وخارجاً للغلبة والنصرة والأسماء التي يحملها هي أمين وصادق.

وكذلك فالترانيم المسيحية تعظّم صفات الله ومن ضمنها أمانة الله وفي ترانيمها الحلوة تصبح صفات الله ينابيع تفيض منها أنهار النغم المفرحة، ولا زالت هناك بعض كتب الترانيم القديمة التي لا تحمل فيها الترانيم أسماء، وفي أعلى كل منها سطر بالخط الرفيع يتحدث عن موضوعها، ولا يسع القلب العابد إلا أن يفرح بما يجد، إذ فيها تتعظم كمالات الله المجيدة مثال ذلك: "الحكمة والجلال والصلاح"، "العلم بكل شيء"، "القدرة على كل شيء وعدم التغير"، "المجد والرحمة والنعمة". هذه أمثلة بسيطة أخذناها من كتاب ترنيم صدر في سنة ١٨٤٩، ولكن كل من له دراية بالترانيم المسيحية يعلم أن فيض الترانيم المقدسة منبعه في القديم في أيام الكنيسة الأولى. لقد كان الإيمان بكمال الله منذ البداءة مصدر تأكيد حلو للمؤمنين وقد علّم الأجيال أن ترنم.

ويرتكز كل رجائنا بمستقبل سعيد على أمانة الله، وعهوده قائمة وأمينة لأنه هو أمين. ولن نعيش في سلام وننتظر الحياة الآتية بثقة وتأكيد إلا إذا كان لنا اليقين الأكيد بأمانته تعالى.

ويستطيع كل قلب أن يأخذ هذا الحق لنفسه وأن يستخلص منه النتائج التي يوحيها الحق ويوضحها. وكل مجرّب وقلق وخائف ويائس يستطيع أن يجد أملاً جديداً وفرحاً أكيداً بمعرفته أن أبانا السماوي أمين وأنه دائماً صادق في كلامه. ويستطيع كل أبناء العهد المجرّبين أن يتأكدوا أنه لن يرفع رحمته عنهم أو يغير أمانته نحوهم:

سعيد هو الرجل الذي يستند رجاؤه

على الله. فقد صنع الله السماء

والأرض والبحر وكل ما فيها

وحقه ثابت إلى الأبد

وهو يخلص المتضايق ويطعم الجائع

ولن يخيب أحد من وعده.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إيزاك واتس

الفصل السادس عشر: صلاح الله

أحسن إلينا برضاك يا رب. لا تعاملنا حسب ما نستحق بل حسب ما يوافقك يا الله، وهكذا لا يكون هناك ما يخيفنا في هذه الحياة أو الحياة الأخرى، آمين.

تعني كلمة صالح أشياء كثيرة عند أناس كثيرين ولذلك يجمل بنا أن نبدأ هذه الدراسة المختصرة لموضوع صلاح الله بتعريف لهذه الكلمة. ولن نستطيع الوصول إلى معنى هذه الكلمة إلا باستعمال مرادفات كثيرة لها. فنبتدئ من طرق مختلفة إلى حيث بدأنا.

وعندما يقول علم اللاهوت المسيحي أن الله صالح فليس المراد هو عينه عندما نقول إنه بار أو قدوس. فقداسة الله تعلنها أبواق السماء ويتجاوب أصداءها القديسون والحكماء في الأرض حيث أعلن الله نفسه للناس. على أننا هنا لسنا في مقام التأمل في قداسته بل في صلاحه، وهو شيء آخر تماماً.

فصلاح الله هو ما يجعله شفوقاً رؤوفاً، عطوفاً، ومحسناً، ومملوءاً مسرة نحو الناس. وهو عطوف وكثير الرأفة، وإحساناته نحو الخلائق الأدبية مفتوحة للكل وصريحة وصديقة، وهو بطبيعته يحب أن يفرق النِعَم والبركات وهو يُسرَّ بسعادة عبيده.

وصلاح الله واضح تصريحاً وتلميحاً على كل صفحة من صفحات الكتاب المقدس ويجب قبوله كمادة من مواد قانون الإيمان، حصينة حصانة عرش الله. وهو حجر الأساس لكل تفكير سليم عن الله وهو ضروري لكل رزانة أخلاقية. والتسليم بأن الله يمكن أن يكون غير صالح إنكار لصحة كل فكر وهذا يؤدي إلى نقص كل حكم أدبي. فإن لم يكن الله صالحاً فلا فرق إذن بين اللطف والقسوة، والسماء قد تكون جحيماً والجحيم سماءً.

وصلاح الله هو سبب كل البركات التي يفرقها علينا كل يوم. فقد خلقنا الله لأنه سر قلبياً بخلقنا، ثم فدانا للسبب عينه.

ولقد رأت جوليان أوف نوريتش Julian of Norwich التي عاشت منذ ستمائة سنة خلت، إن أساس كل بركة هو صلاح الله. وفي مطلع الفصل السادس من كتابها الجميل جمالاً لا يصدق: إعلان محبة الله Revelation of Divine Love تقول: "هذا العرض قصد به أن يعلم نفوسنا أن تلتصق بكل تعقل بصلاح الله"، ثم تستطرد إلى ذكر بعض الأعمال العظيمة التي عملها الله لأجلنا وبعد كل منها تقول "من صلاحه". ثم رأت إن كل أوجه نشاطنا الديني وكل وسائل النعمة، مهما كانت صحيحة ونافعة لا تعني شيئاً حتى نفهم أن صلاح الله النابع من ذاته الذي لا نستحقه، هو أساس كل أعماله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وصلاح الله، باعتباره صفة من صفاته، هو من ذاته، غير محدود، كامل، وسرمدي، وبما أن الله لا يتغير فهو لا يتغير في وفرة لطفه، فلم يكن قبلاً ألطف مما هو الآن ولن يكون أقل لطفاً مما هو الآن. وهو لا يحابي بالوجوه بل يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. وسبب صلاحه كائن في ذاته. وكل الذين ينعمون بصلاحه ينعمون به ليس على سبيل الاستحقاق أو المجازاة.

ويتفق هذا مع العقل، كما تسارع الحكمة الأدبية الواعية إلى الاعتراف بأنه لا استحقاق في سلوك بشري، لا ولا في أنقى سلوك وأحسنه. وصلاح الله هو دائماً أساس انتظارنا ورجائنا. ومع أن التوبة ضرورية إلا أنها لا تنال أجرة بل هي شرط لازم لحصولنا على عطية الغفران التي يمنحها الله لصلاحه. وكذلك الصلاة لا تستحق أجرة في ذاتها، وهي لا تُلزم الله ولا تجعله تحت دين لإنسان ما، بل هو يستجيب الصلاة لأنه صالح وليس لسبب آخر. وكذلك الحال مع الإيمان فهو لا يستحق ثناء بل هو الثقة في صلاح الله، وعدم الإيمان هو نقد لسجايا الله القدوس.

ويمكن تغيير نظرة البشر جميعاً لو أننا جميعنا آمنا بأننا نعيش تحت سماء صديقة. وإن إله السماء تواق إلى مصادقتنا مع أنه عالٍ في قوته وجلاله.

ولكن الخطية جعلتنا متخوفين ووجلين وهذه نتيجة حتمية. ولقد أنتجت فينا السنون الطويلة من العصيان على الله خوفاً لا يمكن قهره في يوم واحد، والأسير لا يدخل بفرح وسرور إلى حضرة الملك الذي حاربه طويلاً ليقهره، ولكن بدون جدوى. ولكن إذا ما كان ذلك الأسير نادماً ندماً حقيقياً فعندئذ يستطيع التقدم إلى الله واثقاً في لطف الله، وعندئذ لا يحسب عليه ماضيه. ويشجعنا مايستر اكهارات Meister Eckhart على أن نتذكر أننا عندما نرجع إلى الله فإن خطايانا ولو كانت ككل خطايا البشر مجتمعة فالله لا يحسبها علينا، بل إنه يثق بنا كما لو كنا لم نخطئ أبداً.

ولعل إنساناً يرغب مخلصاً في أن يتصالح مع الله بالرغم من خطاياه السابقة ويسأل بحذر "إذا ما أتيت إلى الله فكيف يعاملني؟ ما هو استعداده؟ كيف سأجده؟"

والجواب هو أنك ستجده كيسوع تماماً. قال يسوع "من رآني رأى الآب". فلقد مشى المسيح مع الناس على الأرض حتى يريهم كيف يكون الله، ولكي يظهر طبيعة الله الحقة لأناس تكونت لديهم أفكار خاطئة عنه. هذا واحد فقط من الأشياء التي عملها عندما كان في الجسد، ولقد عمله في كمال جميل.

ونتعلم منه كيف يتصرف الله حيال الناس. فالمنافق وغير المخلص غير مكترث ومبتعداً كما وجدوا يسوع مرة، ولكن التائب سيجده رحيماً، والنادم سيجده كريماً وشفوقاً،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وهو صديق للخائف، وغافر للمساكين بالروح، ومترفق بالجهال، ولطيف بالضعفاء ومضيف للغرباء.

ويمكن أن نحدد طريقة قبوله لنا بموقفنا نحن منه. ومع أن لطف الله نبع من الود أبدي لا ينضب معين مائه، إلا أنه لا يجبرنا على قبول حبه، فإذا ما أردنا أن نجد الترحاب الذي قوبل به الابن الضال وجب علينا أن نأتي كما جاء الابن الضال، وعندما نأتي كذلك فسوف نجد مائدة من الترحاب في الداخل وموسيقى ورقصاً إذ يضم الآب السماوي ابنه الراجع إلى قلبه حتى ولو وقف الفريسيون والناموسيون خارجاً كارهين محتجين.

إن عظمة الله تثير الخوف والهلع فينا، ولكن صلاحه يشجعنا على ألا نخاف منه. ومن متناقضات الإيمان أن نخاف ولا نفزع:

يا الله، يا رجائي ويا راحتي السماوية

وكل سعادتي هنا على الأرض

امنحني سؤلي الملحّ

وأعلن صلاحك لي، لي أنا

وأظهر وجهك السعيد

الذي هو بهاء الصبح الأبدي.

وأمام عيني إيماني المستنير يئن

أَجِز كل صلاحك الإلهي

فإن صلاحك هو المشهد الذي أُجلّه

فليتني أشاهد وجهك المبتسم

وأعلن طبيعتك في نفسي

وأعلن محبتك وأسمك المجيد .

تشارلز وسلي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل السابع عشر: عدل الله

يا أبانا إننا نحبك من أجل عدلك، ونعترف بأن أحكامك حق وعدل. وعدلك يدعم نظام الكون ويضمن سلامة كل من يتّكلون عليك، وحياتنا رهن بعدلك ورحمتك. قدوس، قدوس، قدوس، الرب الإله القادر على كل شيء البار في كل طرقك والقدوس في كل أعمالك، آمين.

يندر أن يتميز عدل الله عن بره في الكتاب المقدس. فالكلمة الأصلية عينها تترجم أحياناً عدلاً وأحياناً براً.

ويؤكد العهد القديم عدل الله بلغة صريحة واحدة جميلة جمال أي أسلوب أدبي. وعندما أعلن هلاك سدوم تشفع إبراهيم عن الأبرار الذين كانوا في المدينة مذكراً الله أنه لا بد أن يتصرف طبقاً لذاته في تلك المحنة البشرية. "حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم حاشا لك. أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً."

والصورة الكائنة في ذهن صاحب المزامير والأنبياء عن الله هي صورة حاكم كلي القدرة عالٍ ومرتفع يحكم بالعدل والمساواة. "السحاب والضباب حوله. العدل والحق قاعدة كرسيه". وتنبأ الأنبياء أنه عندما يأتي المسيّا المنتظر طويلاً سيحكم بين الشعوب بالبر ويقضي بالعدل للمساكين. ولقد صلى رجال الله القديسون الرحماء وقد أغضبهم ظلم حكام العالم قائلين "ارتفع يا ديان الأرض. جازِ صنيع المستكبرين. حتى متى الخطاة يا رب. حتى متى الخطاة يشمتون" وليست هذه صلاة للانتقام الشخصي بل هي رغبة لرؤية العدل والإنصاف يسودان المجتمع الإنساني.

ولقد اعترف رجال كداود ودانيال بإثمهم حيال بر الله ونتيجة لذلك حصلت صلواتهم التي رفعوها بتوبة وندامة على قوة وفاعلية "لك يا سيد البر. أما لنا فخزيُ الوجوه". وعندما تبدأ دينونة الله التي طال تأخيرها بالنزول على العالم يرى يوحنا القديسين الظافرين واقفين على بحر من الزجاج الممزوج بالنار وفي أيديهم قيثارات الله. وهم يترنمون ترنيمة موسى والحمل وموضوع ترنيمتهم عدل الله: "عظيمة وعجيبة هي أعمالك أيها الرب الإله القادر على كل شيء. عادلة وحق هي طرقك يا ملك القديسين. من لا يخافك يا رب ويمجد اسمك لأنك وحدك قدوس لأن جميع الأمم سيأتون ويسجدون أمامك لأن أحكامك قد أُظهرت."

والعدل يشتمل على فكرة المساواة الأدبية، أما الإثم فهو على العكس من ذلك، إنه انعدام المساواة من الأفكار والأعمال البشرية. والعدل تطبيق المساواة على المواقف

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الأدبية، وهو معنا أو علينا تبعاً للشخص الذي هو تحت الفحص، هل كان منصفاً أو غير منصف في قلبه وسلوكه.

وأحياناً يقال "إن العدل يتطلب أن يفعل الله هكذا"، وهنا تكون الإشارة إلى عمل ما نعرف أنه سيفعله. وهذا خطأ في التفكير وفي القول لأنه يفترض مبدأ للعدالة خارجاً عن كيان الله يضطره إلى التصرف بطريقة ما. وبالطبع ليس هناك مبدأ كهذا، فلو كان مثل هذا المبدأ لكان أرفع من الله، لأن القوة الرفيعة هي التي تفرض الطاعة. والحق كله هو أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء خارج طبيعة الله يدفعه للحركة، أية حركة. وكل أسباب الله تصدر عن كيانه الداخلي غير المخلوق، ولم يزد شيء على كيان الله منذ الأزل، كما لم يُستبعد شيء ولم يتغير شيء.

وعندما نتكلم عن عدل الله فنحن نطلق الكلمة على كيان الله، لا أكثر. وعندما يعمل الله بعدل فهو لا يعمل ذلك ليوافق خاصة مستقلة من خواصه بل إنما هو يتصرف طبقاً لذاته في موقف معين. وكما أن الذهب عنصر في ذاته ولا يمكن أن يتغير أو يساوم، بل هو ذهب أينما وجد فهكذا الله هو الله، دائماً، فحسب، الله كله، ولا يمكن أن يكون إلا ما هو. وكل شيء في الوجود يكون صالحاً على قدر ما يتفق مع طبيعة الله، ويكون صالحاً على قدر ما لا يتفق مع طبيعة الله، فالله هو مبدؤه للمساواة الأدبية الكائن بذاته، وعندما يعاقب الأشرار أو يكافئ الأبرار فهو إنما يعمل وفقاً لذاته من باطنه غير متأثر بأي شيء خارجٍ عنه.

وكل هذا يبدو (من الظاهر فقط) كأنما هو يدحض كل رجاء لتبرير الخاطئ الراجع التائب. ولقد حاول الفيلسوف القديس انسلم رئيس أساقفة كنتربري أن يجد حلاً للتناقض الظاهري بين عدل الله ورحمته. فتساءل أمام الله: "كيف تعفو عن الشرير وأنت الكلي العدل والكامل العدالة". ثم وجه نظره رأساً نحو الله ينتظر الإجابة عن سؤاله لأنه عرف أن الجواب موجود في ما هو الله. ويمكن تلخيص ما وجده انسلم فيما يلي: فكيان الله واحد ، فهو لا يتكون من أجزاء تعمل في موافقة واتزان، بل هو واحد وحسب، وليس في عدله ما يمنع رحمته. وتفكيرنا عن الله كما نفكر أحياناً عن محكمة يجلس فيها قاض عطوف، مُلزَم بقانون، وهذا القاضي يحكم معتذراً على رجل بالموت والدموع في عينيه، هذا التفكير لا يليق أن نفكره عن الله الحق، فالله لا يتناقض أبداً مع نفسه، ولا تتعارض صفة من صفاته مع الصفات الأخرى.

إن رحمة الله تنبع من صلاحه، والصلاح بدون عدل ليس صلاحاً فالله يعفو عنا لأنه صالح، ولكنه لا يقدر أن يكون صالحاً إن لم يكن عادلاً. ويختم انسلم حديثه بقوله أن الله عندما يعاقب الأشرار فهو يعاقبهم لأن ذلك يتناسب مع ما يستحقونه، وعندما يرحم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الأشرار فهو يرحمهم لأن دلك يتناسب مع صلاحه، ولهذا فالله يعمل ما يناسبه لأنه الإله الصالح الصلاح الأعظم. هذا هو العقل الذي يسعى لكي يفهم، لا لكي يؤمن فهو قد آمن فعلاً.

وفي التعليم المسيحي عن الفداء نجد حلاً أبسط وأكثر شيوعاً للمشكلة التي تقول كيف يمكن أن يكون الله باراً وفي الوقت نفسه يبرر الأثيم. وهكذا فإن العدل لا ينقض بعمل المسيح في الفداء بل يأخذ مجراه عندما يعفو الله عن الخاطئ. فالتعليم اللاهوتي عن الفداء يقول بأن الرحمة لا تتم على إنسان حتى يعمل العدل عمله. فقصاص الخطية الحق قد استوفي عندما مات المسيح بديلُنا عنا على الصليب. ومهما كان سمع هذا ثقيلاً على أذن الإنسان الطبيعي فقد كان دائماً لذيذاً لأذن الإيمان. ولقد غيرت هذه الرسالة الملايين أدبياً وروحياً فعاشوا حياة القوة الأدبية العظمى ثم ماتوا في النهاية بسلام واثقين بها ومتكلين عليها.

وهذه الرسالة عن العدل الذي استوفى حقه والرحمة التي تعمل عملها هي أكثر من مجرد نظرية سارة طيبة، فإنها تعلن حقيقة أوجبتها حاجة البشر الملحّة. فنحن جميعنا تحت حكم الموت بسبب خطايانا، وهو حكم نجم عندما التقى العدل مع موقفنا الأدبي. فعندما التقى العدل غير المحدود مع إثمنا المزمن العنيد دارت حرب ضروس بين الاثنين، وهي حرب انتصر فيها الله كما هو دائماً منتصر. ولكن عندما يلقي الخاطئ التائب بنفسه على المسيح طالباً الخلاص ينعكس الموقف الأدبي. فيتقابل العدل مع الموقف المتغير ويحكم ببراءة المؤمن. وهكذا يقف العدل فعلاً في جانب أولاد الله المتكلين عليه. وهذا هو معنى الكلمات الجريئة التي نطق بها الرسول يوحنا "إن اعترافنا بخطايانا هو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم."

ولكن عدل الله يقف أمام الخاطئ إلى الأبد بكل قسوته. أما التعلل بذلك الأمل المبهم الهزيل بأن رحمة الله لا تسمح بعقاب الخاطئ فهو مخدر قتال خدّر ضمائر الملايين من البشر. فهو يهدئ روعهم ويجعلهم يمارسون كل أنواع الإثم الممتعة بينما الموت يزحف نحوهم رويداً رويداً وهم لا يأبهون بالدعوة إلى التوبة. إننا نتجاسر أن نغامر هكذا بمستقبلنا الأبدي فنحن خلائق ذوو مسؤولية أدبية:

يا يسوع إن دمك وبرّك

هما زينتي وهما ثوبي المجيد

وإذ ارتديهما في العوالم الساطعة

أرفع رأسي بفرح.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

سأقف بجرأة في يومك العظيم

فمن هو ذلك الذي يشتكي عليّ

إنني أقف مبرراً بهما براً تاماً

من الخطية والخوف والذنب والعار.

الكونت ن. ل. فون زنزندورف

Count N. L. von Zinzendorf

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثامن عشر: رحمة الله

يا أبانا القدوس إن حكمتك تثير إعجابنا، وقوتك تملؤنا خوفاً ورهبة، وكلية وجودك تجعل كل بقعة من الأرض أرضاً مقدسة. ولكن كيف نشكرك الشكر الكافي على رحمتك التي تتنازل إلى أعماق حاجتنا لتمنحنا جمالاً عوضاً عن الرماد ودهن فرح عوضاً عن النوح ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة. إننا نباركك ونعظّم رحمتك باسم يسوع المسيح ربنا. آمين.

عندما نصل نحن أبناء الظلال منزلنا أخيراً في النور بوساطة دم العهد الأبدي، سنغني على قيثارات ذوات آلاف الأوتار. ولكن أجمل وتر هو ذلك الذي يطلق بإتقان تام لحن رحمة الله.

لأنه أي حق لنا لنوجد هناك؟ ألم نشترك بخطايانا في تلك الثورة النجسة التي حاولت برعونة أن تنزل الملك المجيد عن عرش الخليقة؟ وألم نتصرف نحن سابقاً حسب رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية؟ وألم نكن كلنا عائشين حسب شهوات أجسادنا؟ وألم نكن بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين؟ ولكننا نحن الذين كنا قبلاً أعداء وأجنبيين في أفكارنا بأعمالنا الشريرة، نحن سوف نرى الله وجهاً لوجه وسيكون اسمه على جباهنا. نحن الذين نستحق الإقصاء عن الله سنتمتع بالشركة معه، نحن الذين نستحق أوجاع جهنم سوف نختبر نعيم السماء. وكل ذلك بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء.

يا إلهي: عندما كل مراحمك

تراها نفسي عند قيامتها

سيملأني المنظر فرحاً، وسيأخذني

العجب والمحبة والشكر.

جوزيف أديسون Joseph Addison

الرحمة صفة من صفات الله وهي طاقة في طبيعة الله لا نهائية ولا تنفد أبداً وتجعله رحيماً شفوقاً. وكلا العهدين القديم والجديد يعلنان رحمة الله، إلا أن العهد القديم يذكرها أربعة أضعاف ما يذكرها العهد الجديد. ويجب أن نطرد من أفكارنا طرداً نهائياً تلك الفكرة الشائعة القائلة أن العدل والبر يميزان إله الشعب القديم بينما الرحمة والنعمة هما لرب الكنيسة. ومن ناحية المبدأ لا يوجد فرق في الحقيقة بين العهدين القديم والجديد. ففي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

العهد الجديد نجد حق الفداء بأكثر توسيع، ولكن الله الذي يتكلم في كلا العهدين هو واحد، وما نطق به يتفق مع كيانه. وهو يتصرف كما يليق بذاته في كل مرة يظهر فيها وفي أي مكان يظهر فيه. وسواء أكان في جنة عدن أم في بستان جثسيماني فإن الله رحيم كما هو عادل. ومعاملاته مع البشر دائماً رحيمة وهو دائماً ينفذ عدله حينما تُحتقر رحمته. هكذا عمل في الأيام التي سبقت الطوفان، وهكذا عمل عندما جال المسيح بين الناس، وهكذا هو يعمل اليوم وسوف يعمل كذلك دائماً لا لسبب إلا لأنه هو الله.

ولو أننا استطعنا أن نتذكر دائماً أن رحمة الله ليست حالة مؤقتة بل هي صفة في كيان الله السرمدي فلن يخامرنا إذن أي خوف من أنها ستنفد يوماً من الأيام. فليس للرحمة بداية بل لقد كانت منذ الأزل وهكذا فلن تزول أبداً. وهي غير قابلة للزيادة لأنها لانهائية في ذاتها ولن تنقص أبداً لأن اللانهائي غير قابل للنقصان. ولن يغير من رحمة الله حدث في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل في السماء ولا على الأرض ولا في الجحيم. فرحمة الله قائمة إلى الأبد، رحمة إلهية هائلة عظيمة لا حدود لها.

وكما أن الدينونة هي عدل الله حيال الظلم الأدبي فكذلك الرحمة هي صلاح الله حيال آلام البشرية وجرمها. فلو لم يكن في العالم جرم وذنب، ولا ألم ولا دموع، لكان الله أيضاً لم يزل رحيماً رحمة لانهائية، إلا أن رحمته قد تكون إذن مستترة في قلبه لا يعرفها الكون الذي خلقه، ولا يرتفع صوت بحمد الرحمة التي لم يشعر أحد بحاجته إليها. فبؤس البشر وخطيتهم هي التي تصرخ طالبة الرحمة الإلهية.

وصرخة الكنيسة عبر العصور هي "يا رب ارحم، أيها المسيح ارحمنا". على أنني إذا لم أكن مخطئاً فإني أسمع من خلال تضرعاتها نغمة حزن ويأس. فصرختها الأسيفة التي غالباً ما ترددها بنغمة تسليم كئيب تضطر الإنسان إلى القول بأنها تصلي من أجل غرض لا تتوقع أن تحصل عليه. وقد تواظب على التغني بعظمة الله وترديد قانون الإيمان مرات لا حصر لها ولكن طلبها الرحمة لا يبدو وكأنه أمل ضائع وحسب كأنما الرحمة عطية سماوية يرجوها المرء ولكن لا سبيل للحصول عليها.

فهل فشلنا في الحصول على فرح الرحمة النقي نتيجة لعدم إيماننا أو لجهلنا أو لعله راجع لكليهما معاً؟ وهكذا كان الحال مع الشعب القديم كما قال بولس: "لأني أشهد لهم أن لهم غيرة ولكن ليس حسب المعرفة". لقد فشلوا لأنهم لم يعرفوا شيئاً واحداً على الأقل. وهو الشيء الذي يتوقف عليه الفارق كله. ويقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين عن الشعب في البرية أنه "لم تنفع كلمة الخبر أولئك إذ لم تكن ممتزجة بالإيمان في الذين سمعوا". فيجب علينا أن نعرف أولاً أن الله رحيم لكي نحصل على الرحمة. ولا يكفينا أن نعرف أنه قد أظهر رحمة لنوح أو لإبراهيم أو لداود وأنه مرة أخرى سوف يظهر الرحمة في يوم ما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

سعيد في المستقبل، بل يجب علينا أن نؤمن بأن رحمة الله لا تعرف حداً، وهي مجاناً، وفي يسوع المسيح ربنا، وهي مقدمة لنا الآن في موقفنا الراهن.

وقد نقضي العمر كله طالبين الرحمة ولكن بغير إيمان فإذا بنا في نهاية حياتنا ليس لنا إلا أمل أسيف بأننا سنحصل عليها يوماً ما وفي مكان ما. ومثلنا في ذلك كمثل من يموت جوعاً بجوار غرفة وليمة فاخرة قد دُعي إليها دعوة حارة، مع إننا نستطيع إذا أردنا أن نتمسك برحمة الله بالإيمان فندخل القاعة ونجلس بنفس جريئة مشتاقة لا تسمح بخوف أو عدم إيمان أن يمنعها من أن تتمتع بالأشياء الدسمة التي تم أعدادها:

قومي يا نفسي قومي

وانفضي عنك مخاوفك الأثيمة

فالذبيحة العظمى

التي قُدمت عني ها هي ظاهرة

فضامني يقف أمام العرش

واسمي مكتوب على يديه.

لقد تم الصلح مع إلهي

وها أنا أسمع صوته الغافر

وهو يعترف بي ابناً له

ولن أخاف بعد الآن

بل أتقدم بثقة الآن

وأقول "يا أبا الآب."

تشارلز وسلي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل التاسع عشر: نعمة الله

يا إله كل نعمة، يا من أفكارك من نحونا كلها أفكار سلام لا شر، أعطنا قلوباً تؤمن بأننا مقبولون في المحبوب. وأعطنا عقولاً تستحسن كمال الحكمة الأدبية التي وجدت طريقاً تحفظ طهارة السماء ومع ذلك تقبلنا فيها. إننا ليأخذ العجب منا كل مأخذ إنك وأنت القدوس هكذا والمخوف جداً تدعونا إلى وليمتك وتجعل عَلَمَك فوقنا محبة. إننا لا نستطيع أن نعبر عن شكرنا، ولكن نسألك يا رب أن تنظر إلى قلوبنا وأن تقرأ شكرنا لك فيها. آمين.

إن الرحمة والنعمة واحدة في الله، ولكنهما إذ تصلاننا تبدوان كأنهما اثنتان، متصلتان ولكنهما غير متحدتين.

وكما أن الرحمة هي صلاح الله حيال الشقاء والإثم البشريين هكذا هي النعمة هي صلاح الله نحو الدَين البشري وعدم استحقاق الإنسان. وبالنعمة وحدها يحسب الله لنا استحقاقاً حيث لا استحقاق هناك ويعلن أنه لا دَين علينا حيث كان الدين موجوداً قبلاً.

والنعمة هي مسرة الله التي تجعله يغدق حسناته على من لا يستحقونها. وهي مبدأ كائن بذاته في الطبيعة الإلهية يبدو لنا كما هو استعداد قائم بذاته للإشفاق على الشقي، والعفو عن المسيء، والترحيب بالمنبوذ، والرضى عن أولئك الذين كانوا مغضوباً عليهم بعدل. وفائدة النعمة بالنسبة لنا هي أنها تخلصنا وتجلسنا معه في السمويات لتظهر في الدهور الآتية غنى لطف الله الفائق من نحونا في المسيح يسوع.

ونستفيد إلى الأبد من كون الله ما هو. فلأنه هو ما هو فأنه يرفع رؤوسنا من السجن ويغير ثياب سجننا ويلبسنا ثياباً ملكية ويجعلنا نأكل خبزاً أمامه كل أيام حياتنا.

والنعمة تنبع من قلب الله في عمق كيانه المقدس الرهيب العالي عن كل فهم. إلا أن السبيل الذي تفيض به النعمة إلى البشر هو يسوع المسيح المصلوب والمقام. والرسول بولس الذي سبق من عداه في شرح عمل النعمة في الفداء لا يفصل أبداً بين نعمة الله وبين ابن الله المصلوب، ففي كل تعليمة نجد الاثنين معاً، في وحدة عضوية لا انفصال فيها.

ونجد في رسالته إلى أهل أفسس موجزاً كاملاً وافياً لتعليمه عن هذا الموضوع: "إذ سبق فعيّننا للتبني بيسوع المسيح نفسه حسب مسرة مشيئته لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته."

ويتكلم يوحنا في الإنجيل الذي يحمل اسمه عن المسيح باعتباره الوسيط عن طريقه تصل النعمة إلى الجنس البشري "لأن الناموس لموسى أعطي. أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا."

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولكن من السهل هنا أن نضل الطريق ونزيغ عن الحق، كما حصل للبعض. فلقد أجبروا هذه الآية على الوقوف بمفردها، بدون صلة مع الآيات الكتابية الأخرى التي تتحدث عن عقيدة النعمة، وذهبوا إلى أن هذه الآية تعلمنا أن موسى ما عرف إلا الناموس فقط وأن المسيح يعرف النعمة وحدها. وهكذا يجعلون العهد القديم كتاباً للناموس والعهد الجديد كتاباً للنعمة، ولكن الحقيقة غير ذلك.

لقد أُعطي الناموس للناس بموسى ولكنه لم يصدر عن موسى. لقد كان في قلب الله قبل تأسيس العالم. ولقد صار دستور الشعب على جبل سيناء، ولكن المبادئ الأدبية التي احتواها إنما هي أبدية. ولم يكن هناك وقت من الأوقات لم يمثّل فيها الناموس إرادة الله للجنس البشري ولا كان هناك وقت لم يجلب فيه كسر الناموس العقاب والقصاص، مع أن الله عاملهم بطول أناة وكثيراً ما تغاضى عنه الشر بسبب جهالات الشعب. وتظهر حجج بولس المقنعة في الإصحاحين الثالث والخامس من رسالته إلى أهل رومية هذا واضحاً جلياً. فالآداب المسيحية تنبع من محبة المسيح، وليس من ناموس موسى، ولكن المبادئ الأدبية التي احتواها الناموس لم تُلغَ.وليس هناك طبقة محظوظة مستثناة من ذلك البر الذي بالناموس.

والعهد القديم هو بحق كتاب ناموس وشريعة، ولكنه ليس كذلك وحسب، فقبل الطوفان قيل عن نوح أنه "وجد نعمة في عيني الرب" وبعد أن أعطي الناموس قال الله لموسى "لأنك وجدت نعمة في عيني". وكيف يمكن أن يكون شيء غير ذلك، فالله دائماً هو هو نفسه والنعمة صفة من صفات كيانه المقدس، فكما أن الشمس لا تقدر أن تخفي ضياءها فكذلك هو لا يقدر أن يخفي نعمته. قد يهرب الناس من ضوء الشمس إلى كهوف الأرض وأقبيتها المظلمة ولكنهم لا يستطيعون أن يطفئوا الشمس. وهكذا قد يحتقر الناس في أي عصر من العصور نعمة الله ولكن لا يمكن أن يخمدوها.

ولو أن أزمنة العهد القديم كانت أزمنة ناموس قاس لا يلين لكان وجه العالم الأول كله أقل إشراقاً بكثير مما نراه مدوناً في الكتابات القديمة، ولما كان هناك إبراهيم خليل الله، ولا داود الذي كان رجلاً بحسب قلب الله، ولا صموئيل، ولا أشعياء، ولا دانيال، ولكان الإصحاح الحادي عشر من الرسالة إلى العبرانيين، وهو عبارة عن قائمة الشرف لأبطال العهد القديم مظلماً موحشاً. لقد جعلت النعمة القداسة ممكنة في العهد القديم تماماً كما هي تفعل ذلك اليوم.

إنه لم يخلص قط إنسان إلا بالنعمة من أيام هابيل حتى وقتنا هذا. ومنذ أن طرد الجنس البشري من جنة عدن لم يجد أحد ما نعمة عند الله إلا عن طريق صلاح الله وحسب. وحيثما وجدت النعمة أي إنسان فلقد كان ذلك دائماً بيسوع المسيح. فالنعمة حقاً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

صارت بيسوع المسيح، ولكنها لم تنتظر حتى مولده في مذود البقر أو موته على الصليب لكي تعمل، فالمسيح هو الحمل المذبوح منذ تأسيس العالم. وأول إنسان في التاريخ البشري أعيد إلى الشركة مع الله قد أعيد إلى تلك الشركة بالإيمان بالمسيح. وفي العهد القديم تطلع الناس إلى الأمام إلى عمل المسيح الفدائي، وفي العهد الجديد هم ينظرون إلى الوراء إليه، ولكنهم وصلوا وما زالوا يصلون بالنعمة بالإيمان.

ويجب ألا يغرب عن البال أن نعمة الله سرمدية ولا حدود لها وكما أنه لا بداءة لها فكذلك ليس لها نهاية. وبما أنها صفة من صفات الله فلذلك هي بلا حدود كاللانهائية.

وبدلاً من أن يرهق الإنسان نفسه لمعرفة هذا الحق اللاهوتي فمن الأحسن والأسهل أن نقرن نعمة الله مع حاجتنا نحن، فليس من المستطاع أن ندرك فداحة خطيتنا، بل ليس من الضروري أن نعرف ذلك. وما نستطيع أن نعرفه هو هذا "حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً."

" والإكثار" من الخطية هو أسوأ ما نستطيع فعله. فالإكثار هذا يعني الحد الذي يمكن أن يصل إليه مقدورنا المحدود. ومع أننا نشعر بأن خطايانا علت فوقنا كالجبل، فإن ذلك الجبل على أي حال له حدود واضحة المعالم، فهو كبير جداً، وعالٍ جداً، ويزن قدراً معيناً لا يزداد. ولكن من هو الذي يستطيع أن يصف نعمة الله التي لا حد لها. فالعبارة "ازدادت...جداً" تغطس بأفكارنا إلى اللانهائية وتحيرها هناك. وشكراً لله فكل ذلك بفضل النعمة المتزايدة.

ونحن الذين نشعر في أنفسنا أننا غرباء عن الشركة مع الله نستطيع أن نرفع رؤوسنا الفاشلة وأن ننظر إلى فوق، وبفضل موت المسيح الكفاري قد أزيل سبب إبعادنا، ويمكننا الآن الرجوع كما رجع الابن الضال فنجد الترحاب ينتظرنا. وإذ ندنو من الجنة التي كانت منزلنا قبل السقوط نجد أن سيف النار قد رفع، وحارسا شجرة الحياة يقفان جانباً عندما يريان ابناً للنعمة راجعاً.

ارجع أيها التائه، ارجع الآن

واطلب وجه الآب

إن هذه الرغبات التي تتقد فيك

قد أشعلتها نعمة الله.

ارجع أيها التائه، ارجع الآن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وكفكف الدمع المتساقط

فالآب يدعوك، لا تبك بعد الآن

فالمحبة هي التي تدعوك أن تقترب وتدنو.

وليام بنكو كولير William Benco Collyer

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل العشرون: محبة الله

أبانا الذي في السموات، إننا نحن أولادك كثيراً ما تضطرب أفكارنا إذ نسمع أحياناً وفي وقت واحد أصواتاً في داخلنا تؤكد إيماننا وشكايات لضمائرنا علينا. إننا على يقين من أنه ليس فينا ما يجذب محبة من هو قدوس وعادل نظيرك. ولكنك قد أعلنت محبتك التي لا تتغير في المسيح يسوع . وإن لم يكن فينا ما يفوز بمحبتك فليس في الوجود ما يمنعك عن حبنا. فمحبتك لنا هي بلا سبب وبلا استحقاق من جانبنا، فأنت بذاتك سبب المحبة التي أحببتنا بها. فساعدنا يا رب حتى نؤمن بعمق محبتك وسرمديتها، تلك المحبة التي وجدتنا. وعندئذ تطرح المحبة كل الخوف خارجاً فتطمئن قلوبنا القلقة وتثق لا بما نحن عليه في ذواتنا بل بما أعلنته أنت عن نفسك. آمين.

كتب يوحنا الرسول بالوحي فقال "الله محبة". ولقد أخذ بعضهم هذه العبارة على إنها تعريف لطبيعة الله الجوهرية، وهذا خطأ جسيم، فقد كان يوحنا بقوله هذا يقرر حقيقة ولا يعطي تعريفاً.

فإذا ما ساوينا المحبة بالله وقعنا في خطأ فاحش أنتج فلسفات دينية غير صحيحة وتمحض عن فيضان من الشعر الخيالي الذي لا يتفق مع واقع الكتاب المقدس بل هو ينتمي إلى جو غريب تماماً عن جو المسيحية التاريخية.

فلو أن الرسول أعلن أن المحبة هي كيان الله لاضطررنا إلى الاستنتاج أن كيان الله هو كيان المحبة – فلو أن الله هو المحبة حرفياً لكانت المحبة هي الله حرفياً كذلك، ولكان واجبنا المفروض علينا هو أن نعبد المحبة باعتباره الإله الوحيد. ولو أن المحبة مساوية لله لكان الله مساوياً للمحبة وحسب، ولكان الله والمحبة متشابهين تماماً. وبذلك نهدم فكرة الشخصية في الله وفي هذا إنكار شامل لكل صفات الله ما عدا واحدة فقط، وحتى هذه الواحدة نستعيض بها عن الله، فالله هذا الذي يبقى بعد ذلك ليس هو الله وأبا ربنا يسوع المسيح، وليس إله الأنبياء والرسل، وليس هو إله القديسين والمصلحين والشهداء، ولا هو إله اللاهوتيين ومرتلي الكنيسة.

فيجب علينا أن نتعلم كيف نفهم الكتاب المقدس لأجل خير نفوسنا. وعلينا أن نتحرر من عبودية الكلمات و أن نتعلق بالمعاني بكل أمانة وولاء بدلاً من الكلمات . فالكلمات يجب أن تعبر عن الأفكار لا أن تخلقها . فنحن نقول أن الله محبة ، ونقول أن الله نور ، ونقول أن المسيح هو الحق ونقصد بذلك أن تُفهم الكلمات بنفس المعنى الذي تفهم به الكلمات عندما نقول عن إنسان ما أنه "هو اللطف بعينه " . فنحن بقولنا هذا لا نقصد أن اللطف والإنسان متشابهان تماماً ، ولا يأخذ الناس كلماتنا على هذا المحمل.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فقولنا أن "الله محبة" يعني أن المحبة صفة جوهرية من صفات الله . فالمحبة أمر حقيقي من الله و لكنها ليست هي الله . إنها تظهر كيفية الله في كيانه الأوحد، ككلمة قداسة ، وعدل ، وأمانة ، و حق . ولأن الله لا يتغير فلذلك هو دائماً يعمل طبقاً لذاته ، ولأنه وحدة واحدة فلذلك هو لا يوقف صفة من صفاته لكي يظهر صفة أخرى.

ونحن نتعلم الكثير عن محبته من صفاته الأخرى المعروفة ، مثال ذلك أننا نتعلم أن محبته ليس لها بداية لأنه هو ذاتي الوجود ، وأن محبته لا نهاية لها لأنه هو أبدي ، و أن محبته لا حد لها لأنه هو غير محدود وأن محبته هي جوهر كل قداسة و طهارة لأنه هو قدوس ، وأن محبته واسعة سعة تفوق العقل والإدراك و عميقة عمقاً لا حد له فهي بحر لا يحده شاطئان نركع أمامه في خشوع سار و تتضاءل عن وصفه في قصور وخجل كلمات الإنسان بالغة ما بلغت من الفصاحة و السمو وذلك لأنه هو غير محدود.

ومع ذلك فإننا إذا ما أردنا أن نعرف الله وأن نخبر بما نعرفه لخير الآخرين ونفعهم فيجب أن نحاول التعبير عن محبته. ولقد حاول ذلك كل المسيحيين ولكن لم يوفق واحد منهم إلى الإبداع في ذلك. فلن أستطيع أن أفي هذا الموضوع الهائل العجيب أكثر مما يستطيع طفل صغير أن يقبض على نجم عالٍ متألق. إلا أن الطفل بمحاولته الوصول إلى النجم العالي فإنه يجذب الانتباه إلى النجم بل وهو يظهر الاتجاه الذي يجب أن يوجه المرء نظره إليه حتى يرى النجم. هكذا الحال معي أنا، فبينما أنا أرفع قلبي نحو محبة الله العالية المتألقة فأني أشجع إنساناً ما لم يعرف شيئاً عن محبة الله لكي ينظر إلى فوق ولكي يعرف الأمل طريقه إلى قلبه.

إننا لا نعرف ما هي المحبة وقد لا نعرف ذلك أبداً، ولكننا نستطيع أن نعرف كيف تظهر المحبة ذاتها، وفي هذا ما يكفينا هنا. فنحن نراها أولاً معلنة نفسها كإرادة صالحة، فالمحبة تريد الخير للجميع ولا تبغي لأحد شراً ولا ضراً. وهذا يوضح كلمات الرسول يوحنا "لا خوف في المحبة بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج." والخوف هو العاطفة المؤلمة التي تنشأ عن شعورنا بأذى محتمل أو ألم متوقع. وهذا الخوف يستمر طالما نحن تحت إرادة شخص لا يبغي خيرنا، وفي اللحظة التي فيها نأتي تحت حماية شخص ذي إرادة خيّرة يُطرح الخوف إلى خارج. فإذا ضل طفل صغير طريقه في متجر مزدحم بالناس ملأ الخوف قلبه لأنه يرى الناس الذين حوله وهم الذين لا يعرفهم وكأنهم كلهم أعداء له ولكن هذه المخاوف كلها تنحسر إذا ما وجد ذلك الطفل نفسه بعد لحظة واحدة بين ذراعي أمه. فإرادة أمه الخيرة، تلك الإرادة التي يعرفها جيداً، تطرح خوفه إلى الخارج.

والعالم الذي حولنا مملوء بالأعداء، وطالما نحن معرضون للوقوع في الأذى من جانب هؤلاء الأعداء، فلا مهرب من الخوف. ومن غير المجدي تماماً أن نحاول التغلب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

على الخوف بدون أن نقضي على مسببات هذا الخوف. فالقلب أحكم من رسل التهدئة الذين يحاولون أن يهدئوا من روعنا، فطالما نحن في أيدي الصدفة، نتطلع إلى ما يسمى قانون المتوسط، أي متوسط ما يحدث للناس، ويفرض علينا أن نتكل في بقائنا على قدرتنا في التفوق على أعدائنا في التفكير والعمل. فنحن معذورون تماماً إذا ما تملكنا الخوف والفزع، والخوف له عذاب.

فمعرفتنا أن المحبة من الله ودخولنا إلى ستر المخلص الحبيب متكئين إلى ذراعه، هذه المعرفة وحدها هي التي تستطيع أن تطرح خوفنا إلى خارج.

فلو اقتنع إنسان بأن لا شيء يستطيع أن يمسه بأذى يتخلص فوراً من كل ما يخيفه في الكون كله. نعم قد يختبر أحياناً تلك الحركات العكسية اللاإرادية نتيجة الألم الجسماني، ولكن عذاب الخوف العميق قد مضى إلى غير رجعة. فالله محبة وهو ذو السيادة والسلطان ومحبته تدعوه لأن يبغي خيرنا الأبدي وسلطانه يجعله قادراً على تحقيق ذلك. فليس ما يمكن أن يؤذي رجلاً صالحاً.

قد يقتلون الجسد

ولكن حق الله يبقى خالداً

وملكوته إلى الأبد.

مارتن لوثر Martin Luther

وتخبرنا محبة الله أن الله ذو صداقة ومودة وتؤكد كلمته لنا أنه صديق لنا ويريد منا أن نكون أصدقاءه. ولن يتبادر إلى ذهن إنسان ما أوتي القليل من التواضع أنه صديق الله، ولكن فكرة الصداقة ليس منشؤها الإنسان، فما كان لإبراهيم أبداً أن يقول عن نفسه "أنا صديق الله"، ولكن الله نفسه قال أن إبراهيم كان صديقه أي خليله. وكذلك التلاميذ يكونون على حق لو أنهم ترددوا في ادعائهم صداقة المسيح ولكن المسيح نفسه قال "أنتم أحبائي". إن الإيمان الجريء يؤمن بالكلمة ويطالب بالصداقة مع الله حتى ولو بدا هذا الفكر طائشاً. إننا نكرم الله بتصديقنا ما قاله عن نفسه وباقترابنا بثقة إلى عرش النعمة أكثر مما نكرمه باختفائنا بتواضع التهيب والخجل بين أشجار الجنة.

والمحبة كذلك تشابه عاطفي، فهي لا تقول عن شيء أنه لها بل هي تعطي كل ما لها بسخاء لمن هو موضوع حبها، وهذا أمر نشاهده كل يوم في عالمنا من الرجال والنساء. فها هي أم نحيلة هزيلة ترضع من حليبها طفلاً صحيحاً سميناً، وهي أبعد ما تكون عن الشكوى، بل هي ترمق طفلها بعين السعادة والاعتزاز. وأعمال التضحية ليست بغريبة عن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

المحبة، ولقد قال المسيح عن نفسه "ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه من أجل أحبائه".

ويا له من أمر غريب بديع أن الإله المطلق الحرية يسمح لقلبه أن يتحد عاطفياً بالإنسان، فهو الكلي الاكتفاء يبغي محبتنا ولا يرضى حتى يحصل عليها، وهو المطلق الحرية قد سمح أن يرتبط قلبه بنا إلى الأبد. "في هذا هي المحبة ليس إننا نحن أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا". ولذلك يقول جوليان أوف نوريتش: "لقد أحب العلي نفوسنا بدرجة تفوق إدراك كل المخلوقات، أي أنه لا يوجد مخلوق يعرف كم يحبنا خالقنا محبة حلوة متعجبين إلى الأبد لهذه المحبة السامية العالية عن كل وصف ومقدار، محبة الله القدير التي أحبنا بها من جوده وصلاحه".

ومن مميزات المحبة أيضاً أنها تسر بموضوع حبها. فالله يسر بخليقته ويحدثنا الرسول يوحنا بكل صراحة أن غرض الله في خليقته هو مسرته. فالله يسر بمحبته لكل ما خلقه. ولا يمكن أن نخطئ شعور السرور في إشارات الله الفرحة إلى عمل يديه. والمزمور ١٠٤ هو شعور موحى به من الله في وصف الطبيعة يصور سرور الله "يكون مجد الرب إلى الدهر. يفرح الرب بأعماله".

ويفرح الرب بصفة خاصة بقديسيه. يظن الكثيرون أن الله بعيد بعيد وعابس ومستاء كل الاستياء بكل شيء، وهو يتطلع بجمود إلى أسفل، إلى عالم قد فقد هو الاهتمام به من زمن بعيد، وهذا بلا شك خطأ جسيم. صحيح أن الله يكره الخطيئة ولا يمكن أن ينظر نظرة الرضا والارتياح إلى الشر والإثم، ولكنه يتجاوب بمحبة صادقة مع كل من يطلبون أن يعملوا مشيئته، ولقد أبطل المسيح بفدائه كل حاجز يمنع الناس عن التمتع بالشركة مع الله، فغدا الآن كل المؤمنين به موضوع لذة الله وسروره "الرب إلهك في وسطك جبار يخلص. يبتهج بك فرحاً. يسكت في محبته. يبتهج بك ترنماً".

ولقد تم عمل الله في الخليقة وفقاً لتجانس موسيقي كما يعلمنا سفر أيوب فيقول الله "أين كنت حين أسست الأرض....عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله." وقد عبر جون درايدن John Dryden بشيء من التوسع عن هذه الفكرة، وإن لم يخرج عن الحقيقة بقوله:

من توافق الألحان، من توافق سماوي للألحان

بدأ إطار هذا الوجود

وعندما كانت الطبيعة تحت كومة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

من الذرات المتنازعة ترقد

ولم تكن تستطيع أن ترفع رأسها

سُمع الصوت الموسيقي من العلى

" قوموا يا من أنتم أكثر من أموات"

عندئذٍ كل باردٍ وحامٍ ورطب ويابس

قفز بنظام إلى موضعه

وأطاع قوة الموسيقى الإلهية

من توافق الألحان، من توافق سماوي الألحان

بدأ إطار هذا الوجود

من توافق الألحان إلى توافق الألحان

وراح من نغمة إلى نغمة عبر كل السلم الموسيقي

إلى أن انتهت القطعة الموسيقية كاملة بالإنسان .

من "ترنيمة ليوم القديسة سيسيليا"

والموسيقى هي تعبير عن السرور كما أنها مبعث للسرور، وأطهر السرور وأقربه إلى قلب الله هو سرور المحبة. والسماء مليئة بالموسيقى لأنها مكان مليء بسرور المحبة المقدسة. والأرض مكان يمتزج فيه سرور المحبة بالألم والأسى لأن الخطية موجودة فيها والكراهية والضغينة. ولا بد للمحبة من أن تتألم أحياناً في عالم كهذا كما تألم المسيح عندما بذل نفسه لأجل أحبائه، ولكن الوعد أكيد لنا أن أسباب الحزن والأسى سوف تتلاشى في النهاية وسيتمتع الجنس الجديد إلى الأبد بعالم تسوده المحبة الكاملة، التي لا تطلب ما لنفسها.

ومن طبيعة المحبة أنها لا يمكن أن تبقى راكدة ساكنة، فهي نشيطة خلاّقة ورحيمة: "الله بين محبته لنا لأننا ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا."

" هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد". وحيثما وجدت المحبة وجب عليها دائماً أن تبذل من أجل من تحب مهما كان الثمن. ولقد وبخ الرسل بعض الكنائس الناشئة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

توبيخاً عنيفاً لأن بعضاً من أعضائها قد نسوا هذا وقد سمحوا لمحبتهم أن تنصرف إلى المتعة الشخصية بينما أخوتهم كانوا يقاسون ألم الحاجة والحرمان. "وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه." وهكذا كتب يوحنا بالوحي، ذلك الذي عرف في كل العصور بأنه "يوحنا الحبيب."

ومحبة الله هي إحدى حقائق الوجود، وهي دعامة يرتكز عليها رجاء العالم. ولكنها كذلك شيء شخصي قلبي، فالله لا يحب جماهير أقوام ولكنه يحب شعباً، وهو لا يحب جمهرة أناس بل يحب أناساً. إنه يحبنا جميعاً محبة قوية لا بداءة لها ولا يمكن أن تكون لها نهاية.

وللمحبة في اختبار كل مسيحي حق محتويات سامية مشبعة تميزها عن كل ما عداها في كل المعتقدات الأخرى وترفعها إلى أبعاد سامية تعلو على أنقى الفلسفات وأنبلها. وهذه المحتويات أكثر من مجرد أشياء، إنها الله بذاته في وسط كنيسته يبتهج بشعبه بترنم. والفرح المسيحي الحق هو جواب القلب جواباً موسيقياً متوافقاً لترنيمة الرب الحبيّة:

يا محبة الله المستترة، يا من علوها

وعمقها لا يعرفهما إنسان

إنني أبصر نورك البديع من بعيد

وأتنهد في داخلي طالباً الجواب منك

إن قلبي يتألم ولن

يستريح حتى يجد راحته فيك.

غيرهارد ترستيجن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الحادي والعشرون: قداسة الله

المجد لله في الأعالي. إننا نحمدك ونباركك ونسجد لك من أجل مجدك العظيم. قد نطقت بما لم أفهم. بعجائب فوقي لم أعرفها. بسمع الأذن سمعت عنك والآن رأتك عيني لذلك أرفض وأندم في التراب. يا رب سأضع يدي على فمي. مرة تكلمت ومرتين وأما الآن فلن أتقدم أكثر من هذا.

ولكن بينما أنا أتفكر اشتعلت النار. يا رب ينبغي أن أتحدث عنك لئلا أعثر بصمتي جيل بنيك. هوذا لقد اخترت جهال العالم لتخزي الحكماء وضعفاء العالم لتخزي الأقوياء. يا رب لا تنسني. دعني أعلن قوتك لهذا الجيل وجبروتك لكل آتٍ. أقم أنبياء ورائين في كنيستك يعظّمون مجدك وردّ بقوة روحك القدير لشعبك معرفة القدوس. آمين.

تلك الصدمة الأدبية التي نزلت بنا عندما تركنا إرادة السماء العليا خلّفت فينا خوفاً دائماً يؤثر على كل ناحية من طبيعتنا. فقد دب المرض فينا وفي كل البيئة التي حولنا.

وعندما رأى أشعياء رؤياه الثورية لقداسة الله صارت معرفته الفجائية بفساده الشخصي بمثابة صدمة نزلت به من السماء، نزلت بقلبه المرتجف الخائف، فجاءت صرخته الأليمة "ويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود." تعبّر عن شعور كل إنسان عرف حقيقة نفسه ووقف وجهاً لوجه أمام القداسة الناصعة قداسة الله. ولا يمكن أن يكون اختبار كهذا إلا اختباراً عاطفياً جامحاً.

وما لم نر أنفسنا كما يرانا الله فلن يرجى أن ننزعج كثيراً على الظروف المحيطة بنا طالما هي لم يفلت زمامها لتهدد طريقنا المريح في الحياة. لقد تعودنا أن نعيش في وسط غير مقدس وأصبحنا ننظر إليه كأمر عادي متوقع. ولا يؤسفنا أن لا نرى الحق في معلمينا ولا الأمانة والإخلاص في ساستنا ولا الأمانة الكاملة في تجّارنا ولا الثقة التامة في أصدقائنا ولكي نستمر في البقاء نصوغ القوانين التي تكفل حمايتنا من أخينا الإنسان ثم نكتفي بذلك.

وليس لكاتب هذه الكلمات ولا لقارئها القدرة على فهم قداسة الله. ويجب أن يُختط طريق جديد بالمعنى الحرفي عبر صحراء عقولنا حتى تجري المياه العذبة مياه الحق الحلوة لتشفي أمراضنا وأسقامنا. ولن نستطيع أن ندرك المعنى الحقيقي لقداسة الله عن طريق تصورنا لشخص أو لشيء طاهر تماماً ثم نرتفع بهذا التصور إلى أرفع درجة نستطيع تخيّلها. فقداسة الله ليست هي أسمى ما نستطيع تصوره محسناً تحسيناً لا نهائياً، لأننا ما عرفنا قط شيئاً يشبه قداسة الله، فهي فريدة، وحيدة، لا يدنى منها، وتفوق كل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إدراك، ولا يمكن الوصول إليها. والإنسان الطبيعي لا يراها، فهو قد يخاف من قوة الله ويعجب لحكمته، ولكنه يعجز حتى عن تصوّر قداسة الله.

ولن يستطيع أن ينقل معرفة القدوس إلى روح الإنسان إلا الروح القدس وحده. وكما أن التيار الكهربائي لا يجري إلا في موصّل للكهرباء هكذا الروح القدس يجري في الحق ويجب أن يجد قدراً من الحق في العقل قبل أن ينير ظلمات القلب. والإيمان يستيقظ عند سماعه صوت الحق ولا يستجيب لداعٍ سواه "الإيمان بالخبر والخبر بكلمة الله". والمعرفة اللاهوتية هي الوسيط الذي يجري فيه الروح القدس إلى قلب الإنسان، ولكن يجب أن يكون بالقلب توبة وتواضع قبل أن ينتج الحق إيماناً، فروح الله هو روح الحق، ومن الممكن أن يكون بالعقل بعض الحق بدون أن يكون الروح القدس بالقلب ولكن ليس من الممكن أبداً أن يوجد الروح بدون الحق.

ويعتقد رودلف أوتو في دراسته المؤثرة عن القدوس بوجود شيء في العقل البشري يسميه "نيومينوس" ويعني به على ما يبدو الإحساس بأن في العالم شيئاً غامضاً لا يُدرك أسماه "السر الرهيب" يحيط بالكون ويحتويه، وهو شيء وليس شخصاً، وهو رهيب لا يدرك بالعقل بل يحس به الشعور في أعماق روح الإنسان، ويبقى غريزة دينية دائمة، أي شعوراً بذلك الموجود الذي لا يكتشف ولا يُسمّى والذي يجري كالزئبق في شرايين الخليقة، ويحيّر العقل أحياناً بإعلانه عن نفسه إعلاناً معجزياً خارقاً للطبيعة، فينبطح ذلك الإنسان الذي يواجه بإعلان كهذا ويغشاه الخوف فلا يسعه إلا أن يرتعد في صمت مطبق.

وهذه الرهبة التي تعلو كل عقل، وهذا الإحساس بالسر غير المخلوق الذي هو في العالم، إنما هو أساس كل دين. وديانة الكتاب المقدس النقية وكذلك الديانة الحلولية القبلية ما كانت لتقوم لو لم تكن هذه الغريزة موجودة في الطبيعة البشرية. وبالطبع فإن الفارق بين ديانة أي أشعياء أو بولس وديانة الحلولي الذي يؤمن بأن لكل شيء روحاً هو أن الواحد قد وجد الحق بينما الآخر لم يجده، فليس له إلا غريزة "النيومينوس" فقط، فهو "يتحسس طريقه" نحو إله مجهول، أما أي أشعياء أو بولس فقد وجد الإله الحق الذي أعلن عن ذاته في الكتاب المقدس الموحى به من عنده.

والبحث عن السر، وحتى عن السر العظيم، هو أمر أساسي في الطبيعة البشرية، وهو لازم ضروري للإيمان الديني، على أنه ليس بكافٍ وبسببه قد يتهامس الناس قائلين "ذلك الأمر الرهيب" ولكنهم لا يصرخون بأعلى أصواتهم "يا قدوسي". وفي الكتاب المقدس لدى العبرانيين والمسيحيين يمضي الله في إعلانه ذاته فيعطي ذلك الإعلان شخصية ومحتويات أدبية، فيبدو ذلك الحضور الرهيب أنه ليس أمراً أو شيئاً بل هو كائن أدبي له كل الصفات الدافئة للشخصية الحقة. وأكثر من هذا أنه الجوهر المطلق للسمو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الأدبي، اللانهائي في كمال البر، والنقاوة، والاستقامة، والقداسة الفائقة الإدراك. وهو في كل هذا غير مخلوق، مكتفٍ في ذاته، وعالٍ عن قدرة كل فكر بشري للفهم والإدراك، أو للنطق والإفصاح.

والمسيحي يربح كل شيء عن طريق إعلان الله لذاته في الكتاب المقدس وإنارة الروح القدس، ثم هو لا يخسر شيئاً. ثم يضاف إلى فكرته عن الله فكرتان عن الشخصية والسجايا الأدبية على أن الشعور الأصيل بالرهبة والعجب في حضرة السر الذي يملأ الكون باقٍ لا يتغير. فقد يظفر قلبه اليوم صارخاً "يا أبا الآب – ربي وإلهي". وقد يركع غداً في رعدة السرور متعجباً وعابداً العلي المرتفع ساكن الأبد.

قدوس هو كيان الله، وهو لا يسير في قداسته على مقياس فإنه هو المقياس بعينه. فهو قدوس قداسة مطلقة بملء النقاوة اللانهائية الكاملة كمالاً يفوق الإدراك والتي لا يمكن أن تكون إلا كذلك، وبما أنه قدوس فكل صفاته مقدسة، أي أن كل ما نقول عنه أنه لله يجب أن نقول عنه مقدس.

فالله قدوس وقد جعل القداسة الشرط الأدبي الضروري لسلامة الكون. ووجود الخطية في العالم إلى حين إنما يؤكد هذا. وكل ما هو مقدس هو سليم، فالشر علة أدبية يجب أن تنتهي بالموت.

وبما أن غرض الله الرئيسي في الكون الذي خلقه هو سلامته الأدبية أي قداسة ذلك الكون لذلك فكل ما هو عكس هذا فهو بالضرورة واقع تحت غضبه الأبدي. فيجب أن يبيد الله كل ما يريد أن يفسد خليقته وذلك لكي يحافظ على هذه الخليقة. وعندما يقوم لكي يهزم الشر ويخلص العالم من السقوط الأخلاقي الذي لا قيامة بعده فإنه يوصف بأنه غاضب. كل دينونة انسكبت بغضب عبر تاريخ العالم كانت عملاً مقدساً للحفظ والإنقاذ. ولا يمكن الفصل بين قداسة الله، وغضب الله وسلامة الخليقة. وغضب الله هو عدم احتماله الكامل لكل ما يفسد ويهلك، فهو يمقت الإثم كما تمقت الأم شلل الأطفال الذي يفتك بحياة وليدها.

فالله قدوس قداسة مطلقة لا تعرف درجات، وهو لا يعطي هذه القداسة لخلائقه، ولكن هناك قداسة نسبية يُشرك فيها الملائكة والسرافيم في السماء والأشخاص المفديين على الأرض كإعداد لهم لسكنى السماء. هذه القداسة يهبها الله لأولاده، وهو يشركهم فيها عن طريق حسبانها لهم وإعطائها لهم ولأنه أعدها لهم بدم الحمل لذلك هو يطلبها منهم، وهو يقول لهم "كونوا قديسين لأني أنا قدوس"، فهو لم يقل كونوا قديسين كما أنا قدوس. وإلا لكان تطلب منا القداسة المطلقة، وهي ملك الله وحده. والملائكة يسترون وجوههم أمام نار قداسة الله، بل حتى السموات غير طاهرة قدامه والنجوم غير صافية. ولن يجرؤ إنسان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

مخلص على أن يقول "أنا قدوس"، كما لا يجب أن يتجاهل رجل مخلص الكلمات الخطيرة التي نطق بها الرسول بالوحي "اتبعوا السلام مع الجميع والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب."

فماذا نعمل نحن المسيحيين للخلاص من هذه الورطة؟ علينا أن نعمل كما عمل موسى فنستر أنفسنا برداء الإيمان والتواضع بينما نحن نختلس نظرة خاطفة لله الذي لا يستطيع أحد أن يراه ويقيسه. فهو لا يحتقر القلب المنكسر والمنسحق. وعلينا أن نخفي عدم قداستنا في جروح المسيح كما أخفى موسى نفسه في نقرة الصخرة بينما مرّ مجد الله أمامه. فيجب أن نحتمي من الله في الله، وفوق كل شيء يجب أن نؤمن أن الله يرانا في ابنه كاملين بينما هو يدربنا وينقينا ويؤدبنا لكي نشترك في قداسته.

وبالإيمان والطاعة والتأمل المستمر في قداسة الله ومحبة البر وكره الإثم والتعرف المتزايد على روح القداسة يمكننا أن نعوّد أنفسنا على شركة القديسين على الأرض ونهيء أنفسنا للرفقة الأبدية مع الله ومع القديسين في العلى، وهكذا عندما يجتمع المؤمنون المتواضعون يكون لنا سماء تمضي إلى سماء.

كم هي رهيبة سنوك الأبدية

أيها الرب السرمدي

أمامك الأرواح منبطحة ليلاً ونهار

تعبدك بلا انقطاع!

كم أنا أخافك أيها الإله الحي

بخوف عميق رقيق جداً.

وأعبدك برجاء مرتعد

ودموع التوبة والندامة

فردريك و. فابير

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثاني والعشرون: سيادة الله

من لا يخافك أيها الرب إله الجنود العلي المخوف، لأنك وحدك الرب صانع السماء وسماء السموات والأرض وكل ما فيها وبيدك نسمة كل حي، وأنت تجلس ملكاً على الغمر، نعم فأنت تجلس ملكاً إلى الأبد. أنت ملك عظيم على كل الأرض، وأنت متسربل بالقدرة، والكرامة والجلال أمامك. آمين.

إن سيادة الله هي التي يسود بها على خليقته كلها، وسيادة الله تستلزم أن يكون عليماً بكل شيء ومطلق الحرية، وذلك للأسباب الآتية:

لو أن هناك أي جزء من المعرفة مهما كان ذلك صغيراً غير معروف لله فإن سيادته تنتهي عند تلك النقطة. ولكي يكون رباً على الخليقة كلها يجب أن يحوز كل المعرفة. ولو أن الله كانت تنقصه ذرة ضئيلة من القوة لكان ذلك النقص مدعاة إلى إنهاء سلطانه وانتهاء ملكوته، ولكانت تلك الذرة الضائعة من القدرة ملكاً لآخر ولكان الله سلطاناً محدوداً وبالتالي ليس سيداً.

أضف إلى ذلك إن سيادته تستلزم أن يكون حراً حرية مطلقة ومعنى ذلك أن يكون حراً لعمل ما يريده في أي مكان وفي أي زمان ويتمم مقاصده الأزلية بكل حذافيرها بدون تدخل من أحد. فلو أنه كان أقل من مطلق الحرية لكان أقل من سيد.

ويحتاج العقل إلى مجهود جبار ليفهم معنى الحرية غير المشروطة. فنحن لسنا في موقف سيكولوجي يمكّننا من تفهم الحرية إلا في شكلها المنقوص، فمفهومنا لها قد تكوّن في عالم لا توجد فيه حرية مطلقة، وكل جسم طبيعي يعتمد على أجسام أخرى كثيرة، وهذا الاعتماد يحدّ من حريته.

ويعبّر وردسوَرث Wordsworth في مقدمته عن فرحه لأنه هرب من المدينة حيث كان سجيناً فأصبح "الآن طليقاً كالعصفور أحطّ حيث أشاء". ولكن إذا ما كان الإنسان حراً طليقاً كالعصفور فمعنى ذلك إنه ليس بحرٍ ولا بطليق أبداً. فالعالم الطبيعي يعلم تماماً أن العصفور الذي نظنه حراً هو في الواقع يحيا طول حياته في قفص مصنوع من المخاوف، والجوع، والغرائز، وهو محدود بالطقس، والظروف، والضغط الجوي المتقلب، وموارد الغذاء المحلية، والحيوانات الضارية، وتلك الرابطة التي أغرب الروابط أي الدافع الذي لا يقاوم للمكوث في الرقعة الضيقة من الأرض والهواء التي فرضتها روابط الإنس والمعاشرة. فأكثر الطيور حرية وطلاقة يشترك مع غيره من المخلوقات في الخضوع الدائم لشبكة معقدة من الحاجة. فالله وحده هو الحر وليس سواه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وحتى مجرد البحث في سلطان الله القدير يبدو أمراً لا طائل تحته، والشك في هذا السلطان أمر سخيف. فهل يتصور إنسان أن يضطر الرب إله الجنود إلى استئذان إنسان أو أن يطلب أمراً من أحد يعلوه؟ فإلى من يذهب الله ليطلب إذناً؟ ومن هو أعلى من الأعلى؟ ومن هو أقدر من الأقدر، القادر على كل شيء؟ ومن ذا الذي كان قبل السرمدي؟ وأمام أي عرش يركع الله؟ ومن هو أعظم منه فيلجأ إليه؟ "هكذا يقول الرب...رب الجنود. أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري."

وسيادة الله أمر مسلّم به في الكتاب المقدس ويعلنه المنطق والحق. ولكننا نسلّم بأنها تقيم أمامنا مشكلات لم يستطع أحد أن يحلها حتى يومنا هذا، وأهم هذه المشكلات اثنتان:

أولاهما أن هناك في الخليقة أموراً لا يمكن أن يوافق الله عليها كالشر والألم والموت. فسيادة الله تستطيع أن تمنع وجود هذه ، فلماذا إذن لم يمنعها؟

ولقد تحاشى الزندافستا Zend-Avesta وهو كتاب الزرداشتية وهي من أسمى الديانات الأرضية التي لا تدين بديانة الكتاب المقدس، تحاشى هذه المشكلة بمهارة بأن افترض وجود إلهين هما أرمازد وأهريمان اشتركا في خلق العالم، فأرمازد الطبيب خلق كل ما هو حسن وأهريمان الشرير خلق الباقي. ولقد كان الأمر من البساطة بمكان فأزماد الطبيب لا سيادة له يهتم بها. كما يبدو أنه لم يمانع في أن يشاركه آخر في صلاحياته.

وهذا التفسير لا يقبله المسيحي إذ هو يناقض على خط مستقيم الحق الذي يعلّمنا إياه الكتاب المقدس بكل قوة من أوله إلى آخره، وهو أنه يوجد إله واحد وأنه وحده قد خلق السماء والأرض وكل ما فيها، وصفات الله تمنع وجود إله آخر. والمسيحي يعترف بأن ليس لديه القول الفصل لسرّ السماح بالشر ولكنه يعلم ما ليس له جواباً، كما يعلن أيضاً أن الزندافستا لا يملك الجواب أيضاً.

ومع أن التفسير الشافي لمنشأ الخطية غير متوفر لدينا فإن هناك أشياء متصلة به نعلمها فعلاً. فلقد سمح الله في حكمته كسيد بوجود الشر في نواح محدودة بكل عناية من خليقته، كما يوجد الخارج على القانون الهارب الذي تحدد مجالات نشاطاته المؤقتة. ولقد عمل في ذلك بمقتضى حكمته وصلاحه اللا نهائيين، ولا أحد يعلم الآن ما هو أكثر من ذلك، ويكفينا اسم الله ليضمن كمال أعماله.

والمشكلة الأخرى التي تنشأ عن سيادة الله تتصل بإرادة الإنسان، فبما أن الله يحكم للكون طبقاً لإرادته وسلطانه فكيف إذن يتسنى للإنسان أن يمارس حرية الاختيار،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وإذا ما كان الإنسان عاجزاً عن ممارسة حريته للاختيار فكيف إذن يكون مسؤولاً عن تصرفاته؟ أفلا يكون إذن كدمية يحركها الله من وراء الستار كيفما يشاء؟

ولقد شطرت محاولة الإجابة عن هذا السؤال الكنيسة المسيحية إلى معسكرين متناقضين تمتماً يحملان اسمين لاهوتيين متميزين أحدهما يعقوب أرمينيوس Jacobus Arminiusوالآخر جون كلفن .John Calvin ويقنع معظم المسيحيين بالانضواء تحت أحد المعسكرين فإما أن ينكروا سيادة الله أو حرية إرادة الإنسان. ويبدو أنه يمكن التوفيق بين الموقفين بدون المساس بأيهما، ولو بدت المحاولة التالية عاجزة في نظر دعاة هذا المعسكر أو ذاك.

وهاك رأيي: لقد جعل الله في سلطانه أن يكون الإنسان ذا حرية أدبية للاختيار، ولقد تجاوب الإنسان مع ترتيب الله هذا بالاختيار بين الخير والشر. فعندما يختار أن يعمل الشر فهو لا يبطل سيادة الله بل هو يتممها لأن القانون السرمدي لم ينص على أي الأمرين يجب أن يقع اختيار الإنسان بل أن تكون للإنسان الحرية لكي يختار. فإذا ما رسم الله في حريته المطلقة أن يعطي الإنسان حرية محدودة فمن ذا الذي يعارض الله ويقول له "ماذا تفعل؟" فإرادة الإنسان حرة لأن السيادة لله. فالإله الذي تقل سيادته عن هذا الحد لا يستطيع أن يسبغ على خلائقه حرية أدبية، بل هو يتوجس خيفة من ذلك.

ولعل مثلاً بسيطاً يساعدنا على فهم هذا. تصور أن باخرة من عابرات المحيطات أبحرت من نيويورك قاصدة ليفربول. ولقد حددت السلطات البحرية مكان رسوها، ولا يمكن لأي شيء أن يغيره. هذه على الأقل صورة باهتة لمعنى السيادة.

وعلى ظهر الباخرة عشرات المسافرين الذين لا يرسفون في القيود والأصفاد بل هم أحرار لم تحدد حركاتهم بقانون، ولهم مطلق الحرية للتنقل كما يشاءون. فهم يأكلون ويشربون ويلعبون ويتمشون على ظهر السفينة ويقرؤون ويتحادثون كما يحلو لهم، مع أن الباخرة الجبارة تسير بهم طوال الوقت إلى ميناء جرى تحديده سلفاً.

فنحن نرى هنا السيادة والحرية معاً ولكن الواحدة لا تضاد الأخرى. وهكذا الحال، كما أعتقد، في أمر حرية الإنسان وسيادة الله. فالسفينة العظيمة، سفينة خطة الله ذات السيادة تشق طريقها في بحر التاريخ، ويسير الله دون ما انزعاج أو تعطيل نحو تتميم تلك المقاصد الأبدية التي أعدها في المسيح يسوع قبل بداءة العالم. ونحن لا نعلم كل ما تحويه هذه المقاصد ولكن يكفينا ما أُعلن ليعطينا فكرة عامة عن الأشياء العتيدة ورجاءً صالحاً وثقة أكيدة في مستقبل سعيد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ونحن نعلم أن الله سوف يتمم كل ما وعد به بالأنبياء ونعلم أن الأرض سوف تتطهر يوماً ما من الخطاة، ونعلم أن جماعة المفديين سوف تدخل إلى فرح الله وأن الأبرار سيضيئون في مملكة أبيهم، كما نعلم أن كمالات الله سوف تقابل بالحمد والتهليل من العالم قاطبة وأن كل خليقة ستعترف بالرب يسوع المسيح رباً لمجد الله الآب، وأن النظام الحاضر المختل سوف يبطل، وأنه سوف تكون هناك سماء جديدة وأرض جديدة إلى الأبد.

والله يسير نحو كل هذا بحكمة لا نهائية ودقة كاملة في العمل. ولا يمكن أن يثنيه أحد عن عزمه، أو يقعده شيء عن خطته. وبما أنه بكل شيء عليم لذلك لا يمكن أن تكون هناك ظروف عارضة أو طارئة، أو حوادث من أي نوع كانت. وبما أنه السيد فليس هناك أوامر مضادة ناسخة، ولا فشل في السلطة. وبما أنه كلي القدرة فليس به من حاجة إلى قدرة للوصول إلى أغراضه المختارة. فالله له الكفاية بذاته على كل هذه.

وفي الوقت عينه ليست الأمور بهذه السهولة التي قد يوحي بها هذا الوصف. فسر الإثم يعمل الآن فعلاً. والمعركة الطاحنة بين الخير والشر دائرة بلا هوادة في نطاق إرادة الله الواسعة وسيادته. ولا بد أن ينفذ الله قصده بالزوبعة والعاصفة، على أن الزوبعة والعاصفة موجودتان ويجب علينا ككائنات مسؤولة أن نختار في هذا الموقف الأدبي الحاضر.

ولقد حتّم الله بمشورته الحرة بأمور معينة، أحدها قانون الاختيار والنتيجة. ولقد حتّم الله أن كل من يسلم نفسه لابنه يسوع المسيح في طاعة الإيمان ينال الحياة الأبدية ويصبح ابناً لله. كما أنه رسم كذلك أن كل من يحب الظلمة ويستمر في عصيانه على سلطة السماء العليا يبقى في حالة عداوة روحية ويحكم عليه بالموت الأبدي في النهاية.

وإذا ما حددنا الأمر فطبقناه على الأفراد توصلنا إلى نتائج شخصية جداً وحيوية. ففي هذه الحرب الأدبية التي يستعر أدارها حولنا نرى أن كل من يقفون إلى جانب الله يصفون في الجانب المنتصر ولا يمكن أن يخسروا، وكل الذين يقفون على الجانب الآخر يخسرون ولا يمكن أن يكسبوا. فليس من مكان للصدفة والمقامرة هنا، بل هناك حرية لاختيار الجانب الذي نريد أن نقف فيه. ومتى قررنا الاختيار فليس هناك مجال لنساوم في النتائج، ولا يمكننا أن نستمر في بحثنا أكثر من ذلك.

ويتركز موضوع الاختيار الأدبي حول يسوع المسيح، ولقد تكلم المسيح عن ذلك بكل وضوح عندما قال: "من ليس معي فهو علي"، ثم قال أيضاً: "ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي". وتحتوي رسالة الإنجيل ثلاثة عناصر متميزة: إعلان، وأمر، ودعوة. فهو يعلن أخبار الفداء المفرحة التي تمت بالرحمة، وهو يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا، وهو يدعو كل الناس لأن يسلموا لشروط النعمة بالإيمان بيسوع المسيح رباً ومخلصاً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وعلينا جميعاً أن نختار ما إذا كنا سنطيع الإنجيل أو أن نرفض سلطانه في عدم إيمان، فالخيار لنا ولكن نتائج هذا الخيار قد قررتها فعلاً إرادة الله العليا وليس لنا أن نستأنف هذا القرار.

نزل الله من العلا

وطأطأ السموات العُلى

وبسط تحت قدميه

ظلام السماء.

الشاروبيم والساروفيم

ركبها بسلطانه الكامل

وعلى أجنحة الريح العاتية

جاء طائراً بسرعة.

جلس هادئاً على الغمر

ليكبح جماح غضبها

وهو الرب والملك صاحب السلطان

سيملك إلى الأبد.

تلخيص للمزمور لتوماس سترنهولدThomas Sternhold

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثالث والعشرون: السر المكشوف

إذا نظرنا من وجهة نظر الأبدية وجدنا أن حاجة الساعة الماسة هي أن ترجع الكنيسة من سبي بابلها وأن يتمجد اسم الله فيها مرة أخرى كما كان في الماضي. ولكن علينا أن لا نتحدث عن الكنيسة كشخص معنوياً يحمل اسماً، أي كترتيب ديني غامض. فنحن المسيحيين نكوّن الكنيسة، وكل ما نعمله تعمله الكنيسة، فالموضوع إذن لكل واحد فينا موضوع شخصي، وإذا ما كان للكنيسة أن تخطو إلى الأمام فيجب أن تبدأ كل خطوة بالفرد أي بالعضو.

فماذا نستطيع نحن كمسيحيين عاديين أن نفعله لكي نعيد المجد الذي زال. هل من سر يجب أن نتعلمه؟ هل من معادلة رياضية نطبقها على الوضع الراهن أو وضعنا شخصياً لتنتج انتعاشاً شخصياً؟ إن الجواب على هذه الأسئلة هو نعم.

على أن هذا الجواب قد يخيب آمال البعض لأنه أبعد من أن يكون جواباً عميقاً. فسوف لا أقترح كتابة سرية مستورة، أو طلسماً سرياً يحتاج جهداً جهيداً لحل رموزه، ولن أحتكم إلى قانون خفي من قوانين العقل الباطن، ولا إلى معرفة سحرية هي وقف على قلة من الناس. فالسر سر مكشوف يستطيع قراءته كل عابر سبيل، فهو بكل بساطة النصيحة القديمة التي هي دائماً جديدة وهي: تعرّف على الله. فإذا ما كانت الكنيسة راغبة في استرجاع قوتها المفقودة فعليها أن تبصر السموات المفتوحة وأن ترى الله رؤيا تغيرها وتجددها.

ولكن الإله الذي يجب أن نراه ليس هو الإله المنفعي الذي نستعمله لمنفعتنا كما هو شائع في يومنا هذا والذي يرى فيه الناس أن أهم دعواه هي قدرته على جلب النجاح لهم في مشروعاتهم المختلفة ولذلك فهم يتملقونه ويطرونه ليحصلوا على مبتغاهم. إن الله الذي يجب أن نعرفه هو الله ذو الجلال في السموات، الله أبونا القدير، صانع السموات والأرض، الإله الحكيم وحده مخلصنا. وهو الجالس على كرة الأرض، والذي يبسط السموات كستر وينشرها كخيمة للسكن، الذي يخرج النجوم بالعدد ويدعوها كلها بأسماء بعظمة قدرته، والذي يرى أن أعمال الإنسان كلها باطلة، والذي لا يتكل على الرؤساء ولا يسأل نصيحة الملوك.

ولن يمكننا أن نعرف كائناً كهذا عن طريق الدرس وحده، بل أن معرفته تأتي عن طريق حكمة لا قِبَل للإنسان الطبيعي بها فهو لا يعرفها ولا يمكن أن يعرفها إذ أن حكمة كهذه إنما يحكم بها روحياً. فمعرفة الله إذن هي أسهل شيء وأصعب شيء في العالم في وقت واحد. فهي سهلة لأننا لا نحصل عليها عن طريق الجهد العقلي المضني، بل هي عطية مجانية، فكما تشرق الشمس بنورها الساطع على الحقول المكشوفة فكذلك معرفة الله القدوس هي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

هبة مجانية لكل من يفتح قلبه لقبولها. على أن هذه المعرفة صعبة المنال لأن هناك شروطاً يجب توفرها وهي شروط لا تروق لطبيعة الإنسان الساقط العنيدة المقاومة.

ولنورد هنا ملخصاً مختصراً لهذه الشروط كما يعلمنا إياها الكتاب المقدس، وكما رددها عبر العصور أقدس القديسين الذين عرفهم العالم وأحلاهم.

فيجب علينا أولاً أن نترك خطايانا. فليس جديداً على الإيمان المسيحي ذلك الإيمان بأن الناس السادرين في غيهم لا يمكن أن يعرفوا الله القدوس. وهاك فقرة من كتاب عبري عنوانه حكمة سليمان كان قد صدر قبل المسيحية بسنين كثيرة: "أَحِبُّوا البِرَّ يا من تقضون في الأرض، فكّروا في الله بقلوب صالحة، واطلبوا ببساطة قلب، فأولئك الذين لا يجربونه يجدونه، وهو يعلن ذاته لأولئك الذين لا يفقدون اتكالهم عليه. إن الأفكار العاصية تبعد الإنسان عن الله، وقدرته إذا ما جرّبناها توبخ الجهلاء، فالحكمة لا تعرف طريقها إلى النفس الشريرة ولا تسكن الجسد المستعبد للخطية، وروح النظام المقدس يهرب من الغش والخداع، ويبتعد عن الأفكار العديمة المعرفة، ولا يبقى حين يدخل الشر والإثم". ونحن نجد هذا الفكر عينه في أماكن كثيرة من الوحي المقدس في الكتاب المقدس، ولعل أكثرها شيوعاً قول المسيح له المجد "طوبى لأنقياء القلوب لأنهم يعاينون الله."

ثانياً، يجب أن يكون هناك تسليم كلي للحياة كلها في يدي المسيح بالإيمان وهذا هو معنى "الإيمان بالمسيح"، فهو يتضمن تعلقاً إرادياً اختيارياً وعاطفياً بالمسيح مقروناً بعزم أكيد على الطاعة له في كل شيء. وهذا يتطلب أن نحفظ وصاياه، ونحمل صليبه ونحب الله والناس.

ثالثاً، يجب أن نحسب أنفسنا أمواتاً عن الخطية ولكن أحياء الله بالمسيح يسوع وأن نفتح شخصياتنا فتحاً تاماً يفيض فيها الروح القدس وأن ننظم نفوسنا كما يجب للسلوك بالروح وأن ندوس بأقدامنا شهوة الجسد.

رابعاً، يجب أن نرفض المعايين الدينونة الرخيصة الساقطة وأن ننفصل في الروح انفصالاً تاماً عن كل ما يضع غير المؤمنين قلوبهم عليه وأن لا نسمح لأنفسنا إلا بأبسط أنواع المتعة الطبيعية التي أسبغها الله على الأبرار والأشرار على السواء.

خامساً، يجب أن نروض أنفسنا على ذلك الفن الجميل، ألا وهو التأمل الحبي الطويل في جلال الله. وهذا سوف يتطلب منا بعض المجهود لأن فكرة الجلال قد أوشكت على التلاشي من الجنس البشري. وأصبح مركز اهتمام الإنسان هو نفسه أي الإنسان. وحلت الإنسانية في مختلف صورها محل علم اللاهوت باعتبارها المفتاح إلى فهم الحياة. وعندما كتب سوينبرن Swinburne شاعر القرن التاسع عشر تسبيحته أعطى العصر الحديث

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

التسبيحة التي أخذت مكان تسبيحة الخالق فقال: " المجد للإنسان في الأعالي فالإنسان سيد كل شيء!" فيجب أن تتغير كل هذه الأوضاع بعمل إرادي مقصود وأن تبقى أوضاعاً صحيحة بمجهود عقلي لا يكل.

فالله أقنوم ونستطيع معرفته بدرجات متصاعدة من المعرفة الحميمة عندما نُعد قلوبنا لتلقي هذا العجب. وقد يعني هذا أن نغير معتقدنا الأول عن الله عندما يشرق المجد كفجر على حياتنا الداخلية، ذلك المجد الذي يشع بأشعته الذهبية من صفحات الكتاب المقدس. وقد نحتاج كذلك أن ننعزل عن الحرفية التي لا روح فيها والتي تسود في الكنائس، وأن نحتج ضد الاستهتار الذي يتسم به الكثير مما ينتشر بيننا تحت ستار المسيحية. قد نفقد بعملنا هذا أصدقاء إلى حين وقد ينعتونا بالمتزمتين ولكن كل إنسان يسمح لمثل هذه النتائج غير السارة أن تؤثر فيه في أمر كهذا لا يصلح لملكوت الله.

سادساً، كلما ازداد تعلقنا بمعرفة الله كلما أصبحت خدمتنا للآخرين ضرورية لازمة، فهذه المعرفة المباركة لم تعط لنا لكي نتمتع بها وحدنا، بل كلما ازدادت معرفتنا لله كمالاً كلما شعرنا بالرغبة في ترجمة هذه المعرفة التي حصلنا عليها حديثاً إلى أعمال رحمةٍ وشفقة على البشرية المعذبة. فالله الذي أعطانا كل شيء سيعطي دائماً كل شيء عن طريقنا كلما ازدادت معرفتنا له.

لقد كانت تأملاتنا الآن في علاقة الفرد الشخصية بالله ولكن كما يتضوع شذا العطر من يمين الإنسان فيكشف عن وجود العطر في يد الإنسان فكذلك كل معرفة عميقة لله يحصل عليها الإنسان سوف تبدأ في إحداث تأثيرها على من حولنا من الجيران المسيحيين. ويجب أن نسعى بقصد ثابت لنشرك أفراد أهل بيت الله في النور المتزايد الذي نحصل عليه.

وهذا ما يمكننا أن نعمله إن ركّزْنا أنظارَنا على جلال الله في كل خدماتنا العامة. فليست صلواتنا فقط هي التي تمتلئ بالله بل شهادتنا كذلك، وتسبيحنا، وكرازتنا، وكتاباتنا، كل هذه يجب أن تتركز حول شخص ربنا القدوس القدوس وأن تمجد عظمته وجلاله وقدرته دائماً. ففي يمين العظمة في الأعالي إنسان ينوب عنا بأمانة هناك. أما نحن فقد تركنا هنا بين الناس إلى حين فلنكن ممثلين أمناء له هنا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل هي هيئة إرسالية شغفها نشر كلمة الله في العالم العربي عبر الإنترنت وعبر وسائل إلكترونية أخرى. وتقوم بتوزيع الكتاب المقدس مجاناً للجالية العربية في أميركا الشمالية والقطر العربي وبلدان العالم. بالإضافة إلى مجموعة من الأقراص المضغوطة التي تحتوي على كتب روحية، عظات، تراتيل والكتاب المقدس.
لمزيد من المعلومات الرجاء الإتصال بنا.

يحفظكم الله ويملأ حياتكم بالصحة والسعادة والسلام.

أسرة الخدمة العربية للكرزة بالإنجيل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com